

المعاملات بين الناس في الاسلام

والمعاملات المالية والتجارية

دكتور عز الدين فيرج

استاذ جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العزني

مقدمة

من الضروري أن نعرف الشباب المسلم بتعاليم دينهم ، وما يرتبط منها بحياتهم اليومية ومعاملة من حولهم من الناس ، على أساس من الايمان والتعاون والمودة والحب والثقة .

لهذا اخترت في هذا الكتاب موضوع « المعاملات بين الناس في الإسلام » تناولت فيه بر الأبناء بالآباء ومعاملة الآباء للأبناء ، وحسن معاملة الجار لجاره والحاكم لمحكومه والسيد لعامله .

وتناولت فيه أيضا حسن معاملة المسلم لأخيه المسلم وغير المسلم ، وحسن معاملة الإسلام للمرأة ، وعطف الإنسان على الحيوان .

وفي أبواب أخرى تناولت أثر الكلمة الطيبة وبشاشة الوجه واحترام الصغير للكبير وعطف الكبير على الصغير ، وأثر ذلك كله في خلق المودة والأخوة بين الناس .

وتناولت أيضا في هذا الكتاب علاقة البائع والمشتري القائمة على الأمانة واحترام العقود والعهود ، موضحا كيف طالب الإسلام البائع بعدم احتكار السلع وخزنها وعدم غشها ، ودقة الكيل والميزان .

وتناولت أيضا كيف طالب الإسلام حماية المال العام والخاص ، لتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وكيف رفض الرشوة وحاربها .

هذا هو دستور الإسلام في المعاملات بين الناس في الحياة اليومية ، فاعملوا به واحرصوا عليه . . . فهو طريق العدل والتعاون والإخاء والثقة الذي يحقق الراحة والطمأنينة والسعادة لجميع الناس ، في كل زمان ومكان .

دكتور عز الدين فراج

مَعَامِلَةُ الْأَبْنَاءِ لِلْأَبَاءِ

قال الله تعالى في كتابه الكريم : « وَقَضَى (١) رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا « أَفٌ » (٢) وَلَا تَنْهَرُهُمَا (٣) ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ (٤) ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا . »

أكد الله تعالى في هاتين الآيتين ضرورة البر بالوالدين والإحسان إليهما ، ومهما حاولنا أن نعدد مآثرهما على ولدهما ، وما لقياه من مناعب وشدائد في تربيته وعلاجه والإنفاق عليه ، فلن نستطيع أن نحصى تلك المآثر والأفضال .

كما رسم - سبحانه وتعالى - طريقة من طرق البر والإحسان بالوالدين ، فنهانا عن أن نقول لهما « أف » لأن معناها أنك تضجر منهما ، وتتألم من خدمتهما ، والواجب علينا أن نفرق بهما ، ونقابلهما بوجه بشوش دائماً . فإذا كنت منيها عن أن توجه إليهما كلمة « أف » فلا شك أنك تكون منيها نهيًا أشد وأقوى ، عما هو أعظم وأقسى منها قولاً أو فعلاً .

ثم خص الله سبحانه وتعالى نوعاً من الخطأ الذي هو أقيح من التأفف ، وهو نهر الوالدين وزجرهما بالقول الغليظ ، وأمر الأبناء بالقول الحسن الذي يقضى به حسن الأدب وتحتمة الرعاية والمجاملة للوالدين .

الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

(١) قضى : حكم .

(٢) أف : كلمة تدل على الضجر وعدم الرضا .

(٣) تنهر : تزجر : تعنف . . . أى لا تشتد في معاملتهما .

(٤) اخفض لهما جناح الذل من الرحمة : كن رحيماً بهما ومطيباً لهما .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت النبي صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أى : قال الجهاد فى سبيل الله » .

(البخارى ومسلم)

وعبد الله بن مسعود من أجلاء الصحابة يسأل الرسول الكريم عن أحب الأعمال إلى الله ، فيجيبه بأن خير عمل يقربه إلى مولاه هو الصلاة على وقتها ، أى الصلاة فى أول وقتها ، والصلاة كما عرفت عنصر أساسى فى بناء الإسلام ، والمبادرة إليها والإسراع إلى أدائها فى أول وقتها أفضل عند الله من سائر الأعمال الأخرى ، وكيف لا وفيها تعود النظام واحترام المواعيد .

ثم سأله عن العمل الذى يلى ذلك فى المرتبة فيقول له الرسول :

بر الوالدين بطاعتهم وحسن معاملتهما والدعاء لهما بالرحمة والمغفرة « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

وتقديرا لفضل الأب والأم جعل النبي صلى الله عليه وسلم السعى عليهما مفضلا على الجهاد فى سبيل الله ، ولم يأذن لراغب الجهاد إلا بعد استئذان أبويه .

وقد أيد الله سبحانه وتعالى هذا القول كله فى سورة لقمان حيث قال :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ

فِي عَامَيْنِ ، أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ » . ؟

* * *

والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم يزيد هذا القول تأكيداً وتفسيراً وتوضيحاً ، حين جاءه فتى يشكو أباه قائلاً :

لقد أخذ أبى مالى :

فصاله : فطامه .

ولما سأل الرسول أباه قال له :

سله يارسول الله ، هل أنفقه على إحدى عماته وخالاته أو على نفسي ؟
عند ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلايب هذا الفتى وسلمه

إلى أبيه قائلاً :

أنت ومالك لأبيك .

صدق رسول الله ، وهل كان الابن إلا ثمرة من ثمرات الأب ؟
أفلا يذكر هذا الابن العاق أن أباه احتمل كثيرا من المتاعب في سبيل
تربيته ، وأن المال الذي يشكوه من أجله ثمرة من ثمراته ؟ وكيف يمكن
له أن يجمعه ولو لم ينل قسطا من رعايته وتوجيهه ؟ ! ألا يذكر أنه كان
يؤثره على نفسه صغيرا ، ويتمنى له النجاح والفوز كبيرا ، ويبدل كل
ما في وسعه ليخرجه أحسن إنسان ؟

لقد لقنه الرسول الكريم درسا في الوفاء لأبيه ، فكان درسا لكل
ابن يجب أن يعيه ليقدر حق أبيه عليه .

وقد وصف شاعر عربي مبلغ استياء الأب من مثل هذا الابن العاق فقال :

غدوتك مولودا وعلتك يافعا

تعل (١) بما أحنو عليك وتهل

إذا ليلة نابتك بالسقم لم أبت

لسقمك إلا ساهرا أتململ (٢)

فلما بلغت السن والغاية التي

إليها مدى ما كنت فيه أومل

(١) يعل « علل بعد نهل » والنهل هو الشرب الأول

كفيتك معاشك ، وأنفقت عليك

(٢) أتململ : اضطرب وأتوجع

لا أستقر من الوجع

جعلت جزأى غلظة وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى
فعلت كما الجار المجاور يفعل

أها الابن :

بيكر التاجر فى تجارته إلى دكانه ، ويقضى فيه كل نهاره مجدا
فى ترويح بضاعته .

ويتقن الصانع صناعته ويتعب نفسه لينافس غيره ، والزارع يقاسى
الحرا اللافح والبرد القارس فى حقله ؛ وهو يحرق الأرض ويروىها ويحصدها ،
والصياد يقضى ليله فى البحار ، وعلى سواحل الأنهار ليصيد وقد يتعرض
لبرد الشتاء وعواصفه ، إن سألت كل هؤلاء . . . لماذا يفعلون كل ذلك ؟ ..
أجابوك على الفور :

كل ذلك من أجل أولادنا . . . أولادنا فلذة أكبادنا ورياحين نفوسنا .

* * *

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ من أحق الناس بحسن صحابى ؟
قال أمك . قال : ثم من ؟ قال أمك . قال : ثم من قال أمك .
قال : ثم من ؟ قال : أبوك .

أمك هى التى حملتك جنينا فأصابها الضعف ، فإذا جاء يوم ميلادك
وضعتك ثم أرضعتك بلبنها ، وسهرت على راحتك ، تعمل على
مصلحتك ، لذا كانت منزلتها فوق منزلة الأب مع أنهما شريكان
فى تربيتك ، فالأب يسعى ويكدح فى سبيل الحصول على المال الذى
ينفقه على تربيتك ، وهو الذى يركعك ويتحسس حالك ليصلح

منها ما فسد ، ويقوم منها ما اعوج ، والأم بحنانها وعطفها ترعاك ليلًا
ونهارًا لتصح وتسلم ، وتهنأ وتنعم .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله :
إن لي أمًا أطعمها ، وأسقيها ، وأحملها لتقضى حاجتها ، فهل وفيت
لها بحقتها ؟

قال الرسول الكريم :

لا . . . لأنها كانت تفعل لك أكثر من ذلك .

وحدث أن رجلا حضرته الوفاة في عهد الرسول ، ولقنوه الشهادتين ،
فلم ينطق بهما ، وعذب في ذلك كثيرا ، ولما علم النبي بما حدث ، قال :

• أنظروا لعل له أمًا تكون عليه غاضبة .

فسألوها ، فقالت :

إنه كان يؤثر امرأته على ، وسألوها المغفرة والصفح عنه فلم تفعل ،
وعندئذ هم الرسول بإحراقه ، ليستدر عطفها عليه ، فجزعت وغفرت
له ، فنطق بالشهادتين .

لهذا ينبغي أن يبر الولد أمه وأباه ، وأن يجاملهما أحسن مجاملة ويعاملهما
أرق معاملة ، فيطيع أوامرهما ، ويخاطبهما باللين ، ويرشدهما بالرفق ،
ويعطيهما إذا طلبا ، ويساعدهما إذا احتاجا ، فقد تعبنا له من قبل
ليستريح ، وسهرا لينام ، وكافحا ليعلماه وينفقا عليه .

• وعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عظم جرم عقوق الوالدين بمحدثين :

« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراف بالله وعقوق الوالدين » .

وقال في ثانيهما :

« كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين
فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة الدنيا قبل الممات . »

واحتراما للوالدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه »

قيل كيف يلعن الرجل والديه ؟

قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه — عن
عبد الله بن عمرو بن العاص .

على الأبناء أن يضعوا في أذهانهم دائما الحقيقة المؤكدة : وهى حب
الآباء وحرصهم على سعادة الأبناء . ومن هذا الكنز الغالى الذى لا يوجد
إلا فى الآباء يصدر كل نصيح وكل توجيه . فإذا ضاق الأبناء بنصيحة أو توجيهه ،
فليعلموا فى الحال أنهم ضد أنفسهم .

كم ضيقنا ونحن صغار بنصائح الآباء وأوامرهم ، وأكرهنا على قبولها ،
ثم ظهر لنا بعد ذلك أنه لولا إكراهنا عليها لضاع مستقبلنا .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما

فليقس أحيانا على من يرحم

* * *

وقال جل شأنه فى الحث على بر الوالدين بالإنفاق عليهما وبيان أن
أفضل الصدقات وأعظم النفقات التى يتقرب بها العبد إلى ربه هى ما كانت
لوالدين ، ثم لمن يلونهما ممن ذكرهم الله تعالى .

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ »

ترشد هذه الآية الكريمة إلى أن أفضل شيء يتصدق به الإنسان ويفعله من البر والخير والصدقة هو ما كان للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وإلى من يعطونها . وقد بين الله ذلك عند ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم كيف ينفقون أموالهم ، وعلى من يصرفونها ؟ فقال له : (قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى أنفقوها واصرفوها في هذه الوجوه وذلك لأن الوالدين هما السبب في وجوده حتى أمكنه أن يكسب هذا المال فهما أولى من يصرف إليهم المال وأجدر بالإنفاق عليهما من كل من عداهما ثم من بعدهم الأقربون ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يسع جميع الفقراء بصدقته وإحسانه ، فتقديم القرابة أولى من غيرهم ثم من بعدهم اليتامى ، لأنهم لا كسب لهم وليس لهم من يقوم بأودهم ، ويتكفل بمصالحهم ، فهم لذلك أولى بالإحسان إليهم بعد الوالدين والأقربين ، ثم من بعدهم المساكين الذين لا يجدون ما يقوم بكفالتهم فهم أولى بالتصدق بعد من ذكروا ، ثم من بعدهم ابن السبيل والمراد به المسافر الذى فرغ زاده وبينه وبين غرضة مسافة تحتاج إلى مساعدة فينفق عليه ما يبلغه إلى مقصده .

فانظر إلى هذا الترتيب العجيب في بيان كيفية الإنفاق ، وما أحسن تعقيب ذلك بعبارة الترغيب والحث على الإنفاق بلطف ، وذلك من قوله (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) أى (فيجازيكم عليه أوفر الجزاء ، لأنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة) ، وإذا أنفق أحدنا على والديه ما أنفق ، وإذا بذل لهما ما استطاع من البر والإحسان ، فلا يتوهم أنه كافأهما على برهما به ، وإحسانهما إليه وشدة ما قاسياه في صغره ، وتحمله في تربيته ورعايته ، والسهرة عليه ليلا طويلا ، والعناية به في كل لحظة ، والمحافظة على سلامته ، والحرص على ارضائه .

• من العقوق أن يحزنهم ويتسبب في بكائهما وشمهما :

عن على كرم الله وجهه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من أحزن والديه فقد عقهما » رواه ابن الخطيب وأخرج البخارى فى
الأدب المفرد عن ابن عمر رضى الله عنهما « بكاء الوالدين من العقوق »
وأخرجه البخارى أيضا فى الأدب عن زياد بن معراق عن طيسلة أنه سمع
ابن عمر يقول : « بكاء الوالدين من العقوق والكبائر » .

معاملة الأبناء والأبناء

في الإسلام

عنى الإسلام بالأبناء منذ الطفولة ، فهي أول مدارج الحياة (١) ، لأنه إذا ربى الطفل تربية خاطئة شب سيئ التفكير ، ردىء السلوك . وكثير من مشكلات الشباب ترجع أصلاً إلى إهمال تربية الصغار . ولهذا ينادى الإسلام بالاعتناء بالطفل من أول الطريق . . من يوم ولادته .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : حق الولد على والده أن يحسن اسمه ، ويحسن مرضعه ، ويحسن أدبه .

ومن المبادئ الإسلامية في تربية الصغير ما أوصانا به نبينا الكريم . إذ نصحننا بأن نلاعبه سبعا ، ونعلمه سبعا ، ونؤاخيه (٢) سبعا .

فالصغير في بداية عمره يحتاج إلى اللعب ، واللعب لهذا الصغير كالماء والهواء ، والأب والأم أحب الناس للطفل ، فإذا لعبا معه أحس بالسرور والبهجة ، ولسرور الطفل أثر كبير في صحته .

وعندما يبلغ الطفل السابعة من عمره يشترك الوالد في تعليمه وتوجيهه . . سواء أكان ذلك بنفسه إذا كان أهلاً لذلك أم باختيار معلمه ؟ .

وعندما يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، على الأب أن يصاحبه ويصادقه . أى يعاشره معاشرة الصديق أو الأخ ، حتى يستطيع توجيهه التوجيه المنشود .

(١) مدارج الحياة : مذاهبها ومسالكها والسلايم التي يرتقى عليها

(٢) تؤاخيه : تعامله كأخ أو صديق

ما أصدق قول النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال :
« لاعبه سبعا ... وعلمه سبعا... وآخه سبعا » ولم يزد عن ذلك ،
لأن بعد هذه السن ، يريد الشاب أن يشعر باستقلاله وشخصيته . وبعد
هذه السن عليه هو نفسه أن يطلب الرأى والمشورة .

والإسلام يرى فى الصلاة طريق الفضائل ، ولهذا يرى أن نمرن الطفل
عليها ، ونتشدد معه إذا أهملها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مروا
أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

* * *

ومن قواعد التربية الإسلامية للصغار عدم الكذب . لقد أوصانا
الرسول صلى الله عليه وسلم بالأنا نكذب أمام صغارنا حتى لا يألفوا الكذب
ويتعودوه . يقول عبد الله ابن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فنادت أمى :

— يا عبد الله تعال حتى أعطيك .

فقال الرسول لها :

— وماذا أردت أن تعطيه ؟

— قالت :

تمرا

فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم :

— أما لو لم تفعلى لكتب عليك كذبة ، فكان فى ذلك دعوة للتربية عن
طريق القدوة الحسنة . . . وهذا آخر ما توصل إليه رجال التربية .

ومن حق الصغير والصبي على والده الاهتمام به والشفقة عليه ، وأن
يحادثه فى بشاشة وابتسامة .

يقول أنس :

ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان ابنه إبراهيم عند مرضعته كان يذهب إليه ، ويأخذه بين يديه ويقبله ثم يرجع . . . لقد رأيت إبراهيم وهو يموت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم . لقد دمعت عيناه وقال :

— تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ، والله يا إبراهيم إنا عليك لمحنون .

وكان دائما يضم ابنته فاطمة إلى صدره في عطف وحنان .

ودخل الحسن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يصني ، فركب الحسن ظهره وهو ساجد ، فأبطأ في سجوده حتى نزل ، فلما فرغ قال له بعض أصحابه (لقد أطلت سجودك) فقال : إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله . وكان يقول للحسن والحسين « أنا جملكما .

ولقد نزع عمر الثقة من أحد ولاته حين كان عمر يقبل أولاده ، فقال أحد الولاة : إن لي عشرة أولاد ما قبلت واحدا منهم .

قال عمر : « يرحم الله من عباده الرحماء » ثم شطب اسمه من الولاة وقال : « إنه لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرحمة » ؟

وليس من حق الوالد أن يتسبب في ضرر أولاده بأية صورة من الصور ، وألا يضيق بهم مخافة الفقر ، فإن الله تكفل بالأرزاق ، فقال « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق^(١) نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئا كبيرا » .

* * *

(١) إملاق : فقر

والإسلام يأبى أن يفرق الأب بين الأبناء .

كان أحد الصحابة يحب ولده النعمان ، فأراد أن يؤثره وحده بعتية ،
ولكن زوجته أبت إلا أن تشهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فلما ذكر الأب القصة للنبي صلى الله عليه وسلم . . قال له :

— أكلهم أعطيته مثلما أعطيت ولدك النعمان ؟

فأجاب الأب قائلا :

— لا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

— لا تشهدنى على جور (١) .

ثم يقول « اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم » .

والترفة بين الأبناء تثير الشقاق والفرقة والعداوة بينهم ، وتمتد حتى
أحفادهم واحفاد احفادهم .

والترفة حتى بالكلمة تزرع الحقد بين الأخوة ، فإذا يكون الحال
حين تكون الترفة بالمال .

كثيرا ما تهدمت أسر ، وتحول الأخوة إلى أعداء فى ساحات القضاء ،
نتيجة لسوء تصرف الآباء وما فعلوه من ترفة .

ولو فكر الآباء فى مستقبل الأبناء والأحفاد ، لأدركوا أن دوام التآلف
والأخوة والحب بينهم ، خير من كل ثروة ومال .

أما عن وصايا الآباء وحق الأبناء فيها فنشير إلى ما حدث مع سعد

ابن أبى وقاص :

قال سعد :

مرضت مرضا قاربت فيه على الموت .

فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى ، فقلت : يا رسول الله ،
إن لى مالا كثيراً ، وإنى أورث كلاله(١) ، أفأوصى بمالى كله ؟ قال :
لا : قلت : فالشطر(٢) ؟ قال : لا . قلت : فالثلث . قال : « الثلث ،
والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة
يتكففون(٣) الناس .

* * *

غضب معاوية رضى الله عنه على ولده يزيد فهجره ، فقال له
الأحنف : يا أمير المؤمنين : أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن
لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فإن غضبوا
فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم ، وإن لم يسألوا فابتدرهم ، ولا تنظر إليهم
شذرا فيملوا حياتك ، ويتمنوا وفاتك ، فرضى عنه ووصله .

(١) كلاله : ميت لا والد له ولا ولد ، والكلاله أيضا بنو العم الأبعاد

(٢) الشطر : النصف

(٣) يتكفف : يمد كفه يسأل الناس

حَسَنُ عَامِلِ الْجَارِ

جارنا هو أقرب الناس لنا ، وهو الذى يعيش بجوارنا ومن حولنا ،
يحينا كل صباح عند اللقاء ؛ ويتسم لنا كلما لاقيناه ، ويرجو لنا الصحة
والخير والبقاء .

ذكره الله كثيرا فى آياته ووصانا به النبي صلى الله عليه وسلم
فى أحاديثه فقال :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ؛ ومن كان يؤمن
بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليقل خيرا أو ليصمت . »

والإحسان إلى الجار يكون بعمل ما تستطيع عمله من الخير معه : إن
احتاج أعنته ، وإن مرض عدته ، وإن عدت عليه حوادث الأيام خفضت
آلامه ، وإن أصابه خير هنأته .

يجب أن تبسم فى وجه جارك عند اللقاء ، وتسأل عنه عند الغياب ،
وترشده إذا ضل ، وتلش محاسنه ، وتستر عيوبه ، وإن مات تبعت جنازته ،
ومنحت أولاده من بعده عطفك ورحمتك .

لقد ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هو أبعد من ذلك فقال .

« ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » أى أن جبريل
الأمين أكثر من الوصية حتى ظن الرسول أنه سينزله منزلة الأقارب ،
فيفرض له فى التركة كما فرض لهم .

وفى هذا الحديث يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل وصاه بالجار
وصية مستمرة ؛ حتى ظن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجار صار له

ما لأفراد الأسرة والأقارب من حق الميراث ، وهذا يشعرنا بعظم منزلة الجار ، ويدفعنا إلى حسن معاملته ومنع الأذى عنه .

قال صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من

يارسول الله ؟

قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه(١) .

أى الذى يلحق بجاره ضررا فى نفسه أو عياله أو بيته .

وقد أوصى الله به ، فقال سبحانه وتعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا وبذى القربى

واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب .

فالواجب علينا إذن أن نحسن إلى جارنا قريبا كان أو بعيدا :

إذا استعان بنا أعناه .

وإذا طلب منا قرضا إقرضناه .

وإذا احتاج شيئا أعطيناه .

وإذا مرض عدناه .

وإذا جاءه خير هنأناه .

وإذا أصابته مصيبة واسيناه .

فأنت ترى أن الرسول عليه السلام أقسم أن من يمس جاره بسوء

أو يلحق به الأذى يعد ناقص الإيمان .

(١) بوائقه : البوائق الشرور وأنواع الأذى : روى الحديث البخارى ومسلم وأحمد وغيرهما .

يجب ألا نرفع صوت المذياع بدرجة تزعج الجار المريض أو من يريد النوم والراحة أو من يريد الاستذكار . وعلينا ألا نقيم الأفراح وجارنا في حزن ومآثم ، وألا نعتدى عليه بشتى أو إيذاء ، وألا نتدخل في شئونه الخاصة ، أو نسيء إلى أولاده وأفراد أسرته .

وعلينا ألا نباهى بما عندنا من ثياب أو طعام أو نعم أمام جيراننا ، لأن ذلك يؤذى شعورهم أحيانا ، خصوصا إذا كانوا لا يملكون ما نملك . وعلينا أن نساعد جيراننا إذا احتاجوا إلى مساعدتنا في قضاء حوائجهم : وفيما يلي قصص لما ينبغي أن يكون عليه حسن الجوار .

حسن الجوار

كان سعيد بن العاص يساعد جيرانه ، ويكرمهم ويعاونهم ، وذات يوم أراد جاره أن يبيع داره لحاجته إلى المال ، فقدر له المشتري مائة ألف درهم ، فقال صاحب الدار للمشتري :

- بيت جاره سعيد بن العاص يباع بهذا الثمن القليل ! ! لن أبيع هذه الدار ولا أترك جوار إنسان كريم ، يجب مساعدة الناس ، إن رأيتي رحب بي ، وإن غبت سألت عني ، وإن سألته أعطاني .

ولما بلغ سعيد بن العاص هذه القصة بعث إلى جاره بالثمن وأبقاه في داره .

ويذكرنا حسن الجوار بقصة الإمام أبي حنيفة المعظم مع جاره .

كان الإمام أبو حنيفة يسهر الليالي في العبادة وتلاوة القرآن وكان له جار يقلقه طول الليل ، ويزعجه ، ويتصور أنه البطل الذي أضاعه قومه ، ولم ينتفعوا ببطولته في ميدان القتال ، فيغنى بصوت مرتفع في قول الشاعر :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر ؟

ثم يعاود هذا العبث والصياح في كل ليلة ، فكان ذلك يفوت على
أبي حنيفة خشوع الصلاة وتلاوة القرآن ، ومع هذا لم يؤنب أبو حنيفة
جاره ، أو يعنفه على سوء تصرفه .

وذات ليلة لم يسمع الإمام أبو حنيفة صوته كما اعتاد أن يسمعه ،
فسأل عنه : فقيل له .

قبض عليه الشرطة ، لأنه كان يصيح بالليل ، وأودعوه السجن .

فلما أصبح أبو حنيفة ذهب إلى الأمير ، وشفع في جاره ، ولم يبرح
إلا بعد أن أطلق الأمير سراحه .

فقال له أبو حنيفة :

أيها الرجل : هل أضعنك كما كنت تقول في غنائك ؟ فخرجل الرجل ،

وقال لأبي حنيفة :

جزاك الله خيراً ؛ فقد حافظت على حقوق جارك ، ثم تاب ، فلم يعد

إلى إزعاج جيرانه .

وهكذا نرى أن أبا حنيفة احتمل إيذاء جاره ، ثم أحسن إليه ،

فاستطاع بحسن معاملته أن يهذب طباع جاره .

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

هُعَامَلَةُ الزَّوْجَةِ الْمَسَامَةَ لَزَوْجِهَا

بجانب حسن معاملة الإسلام للمرأة طالبا بحسن معاملتها لزوجها وطلبا أن تحسن معاشرته ، وأن تتعاون معه على جلب الخير ودفع الشر عنه ، وأن تعمل على إرضائه والإخلاص له ؛ بأن تبتسم له وتلاطفه ، ولا تحقر له رأيا ، وتساعده إذا أخطأ .

ومن حسن معاشرة المرأة أن تصون عرضها وشرفها ، وأن تحافظ على كرامة زوجها ، وتبذل كل جهدها لراحته ، وأن توفر له الهدوء ليفكر وينتج خصوصا إذا كان يعمل بعمل ذهني أو فكري أو فني . . . مع العناية بأولادها العناية التي تحقق لهم تربية حسنة وثقافة واسعة .

وقد فرض الإسلام على الزوجة المسلمة الوفاء لزوجها ، لما له من أثر في هدوء البيت واستقرار الحياة الزوجية ، فليس هناك ما يصون العشرة الزوجية مثل تبادل مشاعر الحب والود والاحترام . وبهذه المشاعر الطيبة يقدمان مثلا صالحا لأولادهما ، ويقدمان قدوة طيبة يسرون عليها فيما بعد . أما العشرة الزوجية القائمة على النقاش والجدال المستمر فإنها تؤدي إلى تفكك الأسرة .

والزوجة المسلمة العاقلة تكتم أسرار زوجها ، فلا تطلع أحدا على عوراتها ، مهما تكن قرابته ، بل تعمل على إخفائها وإصلاحها محافظة على العلاقة الزوجية وكرامة الأسرة . وهي التي تشاطر أسرتها الحزن والسرور ، وإذا أصيب بنقص دخلها صبرت وتحملت إلى يوم الفرج .

وفرض الإسلام على الزوجة المسلمة أن تحافظ على مال زوجها بحسن

التدبير والاعتدال في النفقة ، مع عدم التصرف في ماله إلا بعد إذنه والتفاهم معه .

قال عليه الصلاة والسلام :

« لا يجوز لامرأة أن تمنح عطية إلا بإذن زوجها » .

ومن مظاهر طاعة الزوجة المسلمة ، البقاء في منزل الزوج ، فلا تخرج إلا بعد إذنه .

وقال أيضا : « أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها كانت في سخط الله تعالى حتى ترجع إلى بيتها أو يرضى عنها زوجها . »
ومن مظاهر الطاعة ألا تدخل أحدا بيته إلا بإذنه ، أجنبيا أو قريبا .

* * *

وكان من فرط إيمان المرأة المسلمة بالوفاء لزوجها وحقه عليها أنها كانت دائما توصي ابنتها بذلك كلما زارتها في بيتها . وفيها يلي « أمامة بنت الحارث » توصي بنتها في ليلة زفافها :

أى بنية : الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك ، ولكنها تذكرة الغافل ومعونة العاقل ، أى بنية : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة ، يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا .

أما الأولى والثانية ، فاصحبيه بانقناعه ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة .
وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن الجوع ملهبة (١) ، وتنغيص النوم مغضبة (٢) .

(٢) مغضبة : يسبب الغضب

(١) ملهبة : يسبب الهياج

وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ،
وملاك الأمر في المال حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير .
وأما التاسعة والعاشر : فلا تعصن له أمرا ، ولا تفسن له سرا ،
فإنك لو خالفته أوغرت صدره^(١) ، وإن أفشيت لم تأمنى غدره .

ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتماً ، والكآبة بين يديه إن كان
فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني
أشد الناس له إعظاماً يكن أشدهم لك إكراماً . واعلمى أنك لا تصلين إلى
ما تحبين ، حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهو اه على هواك ، فيما
أحببت وكرهت .

(١) أوغرت صدره : أثرت غيظه : هيجت غضبه .

مَعَامِلَةُ الْمَرْأَةِ وَالْحَيْرَانِ فِي فِي الْأَسْلَامِ

كان تقدير الرجل للمرأة في الجاهلية تقديراً محصوراً في أوضاع خاصة ، تتصل كلها بالتقاليد والعاطفة والنعرات القبلية . كانوا ينظرون إلى أمهاتهم نظرة تقدير واحترام . وكانت المرأة كأم موضع إجلال وطاعة من كل بنيتها ولكن المجتمع الجاهلي كان خلواً من نظرة تقدير شامل للمرأة في كل حي وفي كل قبيلة ، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الإجماع العام الذي يخلع على الأم المنجبة للرجال ثوباً من التقدير الخاص .

وفي الوقت نفسه كانت بعض القبائل تنظر إلى المرأة نظرة ضعف واحتقار ، إلى حد أنهم مارسوا عادة وأد البنات .

وبجانب هذه العادة المرذولة كانت بعض القبائل تمارس عادة مستهجنة وهي حرمان المرأة من الميراث .

وبالجملة فقد بقيت المرأة العربية في الجاهلية بعيدة كل البعد عن مجالس الأدب والأدباء والعلم والعلماء وعن مضمار السياسة ، والاشراك في الإدارة والحكم ، وعن ميادين القتال والجهاد إلا نادراً .

* * *

ولما جاء نبي الإسلام بدعوته ورسائله المحيطة بتبدل الحال غير الحال لقد وجدت المرأة في هذا النبي درعاً حامية وسنداً قوياً ، يدافع عن حقوقها ويحمي حرياتهما ، فإذا هي تشترك في الجيوش المجاهدة ، وإذا هي تغشى مجالس الأدب والأدباء ، وإذا برأيها موضع الإجلال والتقدير عند الولاة والحكام والخلفاء .

جاء هذا النبي الكريم يقول للناس : خياركم خياركم لنسائكم .

وجاء يقول :

ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم .

وجاء يقول :

المرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها .

لقد نادى النبي بحق المرأة المتزوجة في ممارسة حقوقها المدنية ، فلها أن تدبر بنفسها شئونها وممتلكاتها مستقلة بذلك عن زوجها متى أرادت .

وأجاز لها النبي الاشتغال بالتجارة والصناعة . وليس من حق الزوج منعها من ذلك ، خصوصا إذا كان الغرض مساعدته . وقد كانت تختار من الصناعات النسيج والتطريز ، ومن التجارة السلع الخاصة بالنساء كانت « أسماء بنت مخزومة » تبيع العطور . وكان بالمدينة امرأة عطارة تسمى « حولاء بنت ثويب » .

وكذلك باشرت السيدات المتقدمات في السن التجارة في مختلف السلع ، فقد تقدمت « فيلة الأنمارية » إلى النبي صلى الله عليه وسلم تستفتيه في أنها تساوم في الشراء حتى تصل إلى الثمن الذي حددته فتشترى . وكذلك في البيع . فنهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، موجهها إياها إلى الشراء بالثمن الذي تريد الشراء به والبيع بالثمن الذي تحدده دون مساومة .

ووفدت « أسماء بنت يزيد الأنصارية » على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت .

بأبي وأمي يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك . واعلم - نفسي لك الفداء - أنه ما من امرأة كانت في شرق أو غرب سمعت بمخرجي هذا أو لم تسمع إلا وهى على مثل رأيتي . . . إن الله بعثك إلى الرجال والنساء ،

فآمنا بك واتبعناك . ونحن معشر النساء محصورات ، مقصورات قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وأنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعبادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله ، وأن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مرابطا حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفلا نشارككم في هذا الخير يا رسول الله ؟

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال لهم هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذا ؟ .
فقالوا :

لا ، يا رسول الله .

فقال صلى الله عليه وسلم .

انصروني يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء : أن حسن تبعل (١) لإحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاة ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت .

فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً .

وقد عز على نساء العرب أن يمنح النبي الرجال وخدمهم كل وقتة فسألته أن يختصهن بيوم ، فأجابهن إلى طلبهن ، وحدد يوماً لهن يجلس إليهن يرشد الحائرة ويوجب السائلة .

واستأذن عليه عمر بن الخطاب وهن بين يديه ، فابتدرن الحجاب (٢) ، فلما دخل عمر ، تبسم الرسول صلى الله عليه . فقال عمر بأبي وأمي أنت يا رسول الله : ما يضحكك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأك النساء فابتدرن الحجاب . فالتفت عمر إليهن وقال :

(١) تبعل : رعاية ومداعبة . (٢) ابتدرن الحجاب : أسرعن إلى الستر

يا عدوات أنفسهن ، تهيننى ولا تهين رسول الله ؟

وقلن : أنت أغلظ من رسول الله .

ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج إلى غزوة خيبر ،
تقدمت إليه السيدة « أم سنان الأسلمية » وقالت :

يا رسول الله ، أخرج معك أداوى المريض والجريح إن كانت
به جراح .

فقال رسول الله : اخرجى على بركة الله ، فإن لك صواحب كلمتى ،
وأذنت لهن .

* * *

أما حياته صلى الله عليه وسلم فى بيته وبين نسائه ، فقد كانت
المثل الأعلى فى المودة والوداعة ، وترك الكلفة ، وبذل المعونة ، واجتناب
هجر الكلام ومره .

وسئلت عائشة : ماذا كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم فى بيته ؟
فقال فى مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة ، تريد بذلك أنه كان
يعاونهن ويعمل معهن .

وكان من التبسط ورفع الكلفة إلى حد أن يستبق هو وامراته .
وكانت فاطمة بنت رسول الله تتولى الطحن والعجن على حين كان على
رضى الله عنه ينزح الماء ويحتمله ويهينه .

وقد اعترف المستشرق الفرنسى « أندريه سرفيه » بفضل هذا الرسول
فى كتابه « الإسلام ونفسية المسلمين » فقال :

لا يتحدث هذا النبي عن المرأة إلا فى لطف وأدب . . . كان يجتهد

تهيننى : تحفنى
رفع الكلفة : الامتناع عن التكليف والتصنع

دائماً في تحسين حالها ورفع مستوى حياتها . لقد كان النساء قبله لا يرثن ، بل كن متاعاً يورث لأقرب الرجال ، وكأتهن مال أو رقيق . وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع فحرر المرأة وأعطاهما حق الأثر ، ثم ختم كلمته قائلاً :

« لقد حرر محمد المرأة العربية ، ومن أراد التحقق بعناية هذا النبي بالمرأة ، فليقرأ خطبته في مكة التي أوصى فيها بالنساء خيراً ، وليقرأ أحاديثه المتباينة » .

ما أصدق هذا القول . . . وما أكثر دفاع النبي عن المرأة وحقوقها !
ألم يقل في خطبته التي قالها في حجة الوداع ؟ :

« إن لنسائكم عليكم حقاً وإن لكم عليهن حقاً ، لكم عليهن ألا يقرب فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة (١) ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح (٢) ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان (٣) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً .

أليس هو القائل أيضاً ؟

« يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم ، وليكن سلامك بركة عليك وعلى أهلك » .

وعن ابن عباس « إنى لأتزين لامرأتى كما أحب أن تزين لى » .
وعن عائشة رضى الله عنها ، أن فتاة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :
إن أبى زوجنى من ابن أخيه يرفع بى خسيسته (٤) وأنا كارهة . فأرسل

(١) فاحشة : عمل منكر (٢) غير مبرح : غير مؤذ

(٣) عوان : أسيرات لمساعداتكم (٤) خسيسته : صغر شأنه

النبي إلى أبيها فجعل الأمر إليها . فقالت يا رسول الله إني قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء .

* * *

ومن أعجب المصادفات أن يجتمع المؤتمرون في أوروبا في زمن النبي في سنة ٥٨٦ ميلادية لبحث : هل المرأة إنسان ؟ ويعد بحث ومناقشة وجدل قرر أنها إنسان ولكن خلقت لخدمة الرجل وحده . . . ولم يكذب يصدر هذا القرار الجائر في أوروبا حتى نقضه محمد صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب إذ رفع صوته قائلا :

(إنما النساء شقائق الرجال) .

بل قال للرجال :

ألستم حريصين على دخول الجنة ؟ هذه الجنة التي تحرسون عليها هي تحت أقدام الأمهات ، وكل امرأة أم .

وبذلك علم العالم أجمع أن المرأة إنسان مهذب ، له من الحقوق ما للرجال من حقوق في وقت كانت أوربة تنظر إلى المرأة نظرة سخرية واحتقار . وفي القرن السابع الميلادي عقد مؤتمر عام في روما بحث فيه المجتمعون شؤون المرأة ، فقرر المؤتمر أنها كائن لا نفس له . . . وعلى هذا فليس لها الحق في أن ترث الحياة الآخرة .

ووصفها هذا المؤتمر أيضا بأنها رجس كبير وفرض عليها ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك وألا تتكلم . . . ونادى بعضهم بوضع أقفال على فمها .

وفي هذا الوقت كانت المرأة العربية تأخذ طريقها نحو النور ، وتمتلل مكانتها الرفيعة في المجتمع العربي ، وتقف بجانب الرجال في معترك القتال .

لقد قالت الربيع بنت معوذ .

« كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونسقى القوم ونخدمهم ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة » .

وعن أم عطية الأنصارية قالت :

« غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم في رحالهم ، وأضعب لهم الطعام ، وأداوى الجرحى » .

وعن أنس قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو ومعهم أم سليم ونسوة معها يسقين الماء ويداوين الجرحى » .

فمن بعد هذا كله يكابر ولا يعترف لهذا النبي العظيم ، بأنه أول من نادى بتحرير المرأة ؟

وبعد هذا كله لا يعد هذا النبي الكريم منقذ المرأة من الذل والطغيان والعبودية ؟

ألا يحق بعد هذا كله أن يصف « أندريه سرفيه » نبينا الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها ؟

ألا يحق بعد هذا كله أن يصفه بأنه نصير المرأة ؟

ألا يحق بعد هذا كله لمسيو « ريفيل (١) » أن يقول بدوره ؟

« إننا لو رجعنا إلى زمن هذا النبي لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول ، فالنساء مديونات لنبين بأمر كثيرة ، رفعت مكاتهن بين الناس » .

وهذا أيضا هو ما دفع العالم الألماني « دريسمان » أن يسجل قوله :

« لقد كانت دعوة محمد إلى تحرير المرأة السبب في نهوض العرب

(١) كاتب فرنسى

وقيام مدنيّتهم . . . وعندما عاد أتباعه وسلبوا المرأة حقوقها وحرّيتها كان ذلك من عوامل ضعف واضمحلال قوتهم .

وقد كتبت جريدة المونيتور الفرنسية تصور احترام الإسلام ونييه للمرأة فنقول من مائة سنة مضت .

لقد أحدث الإسلام ونييه تغييرا شاملا في حياة المرأة في المجتمع الإسلامي . . . فمنحها حقوقا واسعة تفوق في جوهرها الحقوق التي منحناها للمرأة الفرنسية .

الْإِسْلَامُ وَصِلْنَا السَّخْمَ

كل منا يود أن يعيش في بسطة من العيش وسعة من الرزق ، وكل منا يود أن يستمتع بمتع الحياة ، ويطمع في الوقت نفسه أن يكون له أثر مشرف بعد مماته ، وقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم الطريق للوصول إلى هذا الهدف ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سره أن يبسط له في رزقه ، وأن ينسأ له (١) في أثره (٢) فليصل (٣) رحمه » .

وهذا الحديث النبوي الشريف يهدينا إلى حقيقة خالدة ، وهي إذا أردنا أن نعيش مستمتعين بسعة في الرزق في حياتنا ، فعلينا أن نصل الأقارب ، بأن نتودد لهم بالزيارة ، ونزور مريضهم ، ونعطف على فقيرهم ، ونواسيهم : أحزانهم ، ونقضى عنهم ديونهم إذا استطعنا ذلك ، ونساعد بكل ما في مقدورنا ، لإبقاء على صلة الرحم وابتغاء رضاء الله .

وبمثل هذه المعاملات الطيبة نشعر بحب الناس لنا ، كما نشعر براحة في النفس . . . وفوق هذا كله نشعر برضاء الله . . . « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » .

كتب الله على نفسه أن يصل من وصل قرابته ، ووعد من يقطعها يقطعه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة قاطع » أى قاطع رحمه ، وقال تعالى : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ، ويغفر لكم » .

(١) ينسأ له : يؤجل له

(٢) أثره : عمره وأجله

(٣) يصل رحمه : يحسن إلى أقربائه ولا يقطع ما بينه وبينهم من صلوات

(م-٣)

وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ، ويدفع عنه ميتة السوء ، فليتق الله ، وليصل رحمه » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مكتوب في التوراة : من أحب أن يزداد في عمره ، ويزاد في رزقه فليصل رحمه » (١) .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغي

وقطيعة الرحم »

ورحم الإنسان أقاربه ، وواجب عليه أن يطعمهم من جوع ، ويؤمنهم من خوف أو يقضى عنهم ديناً أو يفرج عنهم غمماً أو يقضى لهم ما يحتاجون إليه إن كانوا في احتياج إلى ذلك ويتودد إليهم بالزيارة والهدايا والطيب من القول والبشاشة عند اللقاء والمبادرة بالسلام ، والمحافظة على فعل كل ما يجلب محبتهم إن كانوا أغنياء عن ذلك كله .

وصلة الرحم من أفضل الخصال وأجمل الخلال ، فيها يكثر التواصل والتوادد ، وتؤمن الغوائل ويزول التباغض والتحاسد وتلتئم القلوب ، وتغفر الذنوب ، وتصفو الضمائر ، وتحسن السرائر ، ولهذا الثمار اليانعة والفوائد النافعة حث الشرع الإسلامى عليها وبالغ في التمسك بها ، حتى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سبباً في إدرار الرزق وسعته وفاقحة الخير وزيادته .

(١) يصل رحمه : يقوى صلوات القرابة بالإحسان و البر والمودة .

ولعل حكمة حث الشرع عليها والتشديد في أمرها والترغيب فيها والتحذير من قطعها ومجانبة ذلك جهد الاستطاعة أن أقارب الرجل هم أكثر الناس بعد أبويه نصرة له ورغبة في الخير له ، وأشدّهم شفقة عليه ، وأعظمهم محبة له . بهم يعلو بين الأنام قدره ، ويعظم فخره ، ويرتفع ذكره ، وهم أكثر الناس به اختلاطاً فإذا قطعهم تنغص عيشه ، وكثر شره وقل خيره ، وهناك من الأقارب من يسيئون إليك فهل تكون بذلك في حل في عدم البر بهم والعطف عليهم ؟ . وهل يجوز لك في هذه الحال أن تقابلهم بالمثل . ؟

لا ... فالإسلام يطلب التسامح . . إن ذلك لو تم لكان معناه التماذى في الخطأ والعمل على ازدياد الخصام بين الأقارب .

ولذلك يوصينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن نحرص على البر بالأقارب والإحسان إليهم ودوام الصلة بهم ، حتى ولو أساءوا إلينا . وقد تكون هذه المعاملة الحسنة دافعة لهم على تغيير معاملتهم له ، فيقلعون عن الإساءة إليه . . . ويقدرون خلقه وكرمه فيندفعون إلى حبه . وعندئذ يتحقق الهدف من قوله تعالى :

« ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »

حُسْنُ الْمَعَامَلَةِ

بالكلمة الطيبة ، وبشاشة الوجه ، والتعاون والترحام ،
واحترام الصغير للكبير ، وعطف الكبير على الصغير

تحدثنا فيما سبق عن حسن معاملة الأبناء للآباء ، وكيف يخلق في الأسرة
الحبة والترابط ، وعن حسن معاملة الجار لجيرانه ، وكيف يخلق المودة
والطمأنينة بين أهل الحى الواحد ، وتحدثنا عن حسن سير معاملة الأغنياء
لليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وكيف يخلق الترابط والترحام بين
طبقات الشعب الواحد .

والآن نتحدث عن المبادئ العامة التى نادى بها الإسلام لضمان حسن
معاملة الناس جميعا ، وهى الكلمة الطيبة ، وبشاشة الوجه ، واحترام
الصغير للكبير وعطف الكبير على الصغير ، والتعاون والترحام بين
كل الناس .

هذه هى الوسائل العامة التى يراها الإسلام كوسيلة لخلق مجتمع يسوده
الحب والعطف وتظله المودة ، لا بغضاء فيه ولا نفور .

أما أثر الكلمة الطيبة التى نادى بها الإسلام ، وجعلها أساساً لأحاديث
المسلمين ومعاملاتهم فوصفها القرآن الكريم بقوله :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً (١) كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ،
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ،

(١) كلمة طيبة : كل ما يدل على الحق ويدعو الى الخير .

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ (١)
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ (٢) مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ، يُثْبِتُ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » .

● والمقصود بهذه الآية الكريمة أن للكلمة الطيبة تأثيراً كبيراً ، وفضلاً
عظيماً فكما أن الشجرة الطيبة نستظل بظلها ، ونستمتع بثمرها ، كذلك
الكلمة الطيبة تريح النفس ، وتسعد القلب ، وتبعد النفور والحصام ،
وتخلق الحب والوئام ، أما الكلمة القبيحة ، فهي تؤلم النفس ، وتؤذي
القلب ، وتورث الحصومة والعداوة ، وتخلق النفور بين الناس ، لهذا
كانت الكلمة القبيحة كالشجرة الخبيثة التي لا تثمر إلا ثماراً كريهة
الطعم ، مرة المذاق . ومثل هذه الشجرة لا بد من اقتلاعها وما أسهل ذلك !
عليك بالكلمة الطيبة ، فيها تريح الناس وتسعدهم ، وبها يريحونك
ويسعدونك ، وبها تخضع لك القلوب ، وتنحني لك الرعوس ، وبها يلين
لك الحديد .

وكلمة الحق كلمة طيبة تصان بها الحريات والحقوق ، وبها يسود
العدل ، وتطمئن لها النفوس ، وتعم الراحة في الصدور .

* * *

وأرادت الأساطير الهندية أن تصور قيمة الكلمة الطيبة والقول الحسن
وفعلهما في النفوس فقالت على لسان « براهما » وهو يقول لآلهة القوة :

— أنت أعنف من الرياح . . . وأشد قوة من هدير الأمواج . . . فهل
هناك ما هو أقوى منك يا آلهة القوة ؟

فأجابه قائله :

— نعم . . . الكلمة الطيبة والقول الحسن أقوى مني وأكثر تأثيراً .

(١) كلمة خبيثة : كل كلمة ضارة كالدعوة إلى الفساد أو إيقاع الفتنة بين الناس .

(٢) اجثت : اقتلعت عن آخرها .

« بالكلمة الطيبة تخضع لك الرعوس ، وتنحنى لك الهامات » . ليس هذا فحسب ، بل أرادت أن تقول إنك تستطيع بالقول الحسن أن تهزم كل قوى وتخضع كل جبار .

ومن الكلمة الطيبة ألا يجهر المؤمنون بالسوء من القول ، لهذا قال الله تعالى :

« لا يُحِبُّ اللهُ الجَّهْرَ بالسَّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ، وكان اللهُ سَمِيحاً عَلِيماً » .

يحب الله من المؤمن أن يكون طاهر اللسان عفيف النطق ، لأن ذلك يدل على طهارة القلب وصفاء النية ، ويكره منه أن يلفظ السوء أو يشتم مخلوقا ، لأن ذلك يدل على خبث النفس وسوء الضمير .

ولا فرق في ذلك بين أن يجهر بالقول الجارح أو بقوله سرا ، لما فيهما من المخالفة للأخلاق الفاضلة ، والصفات الشريفة . ونبه الله تعالى على الجهر دون السر ، لأنه أفحش وأشنع ، إذ ربما كان سبباً في أن يقلده صغار العقول ، وضعاف النفوس ، ولأن الإنسان إذا تعود ترك الجهر أدى به ذلك إلى ترك السر .

• ومن الكلمة الطيبة أن يرد المؤمن عن عرض أخيه (١) . وفي هذا الصدد قال النبي صلى الله عليه وسلم : من رد عن عرض أخيه بالغيب (٢) رد الله عن وجه النار يوم القيامة .

وجاء هذا الحديث الشريف إرشادا للناس إلى فضيلة من الفضائل العظيمة ، ونهيا لهم عن رذيلة من الرذائل وهي رذيلة الغيبة - وهي أن يذكر الإنسان أخاه بشيء يكرهه - ولو كان ذلك الشيء فيه في الواقع - كأن يصفه بأنه قصير أو راسب في الامتحان أو من أسرة فقيرة أو حقيرة

(١) عن عرض أخيه . العرض ما يفتخر به من طهارة وشرف .

(٢) الغيب . أى في غياب أخيه .

او كان أبوه سجيناً أو غير ذلك مما يتأذى منه . فإذا كان مثل هذه الأوصاف محرماً عنه في دين الإسلام ، فما ظنك بغيره من الأوصاف الشديدة الآلام ، أو بالصفات السيئة تختلفها (١) اختلاقاً ؟

لقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة ، لأن فيها أضراراً شديدة تسبب العداة بين الناس ، وتفكك ما بينهم من روابط المودة والصدقة ، بعد أن كانوا مرتبطين بصلات القرابات والأرحام التي أمر الله تعالى بها أن توصل .

وكما للكلمة الطيبة تأثير طيب ، كذلك بشاشة الوجه لها نفس التأثير ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم .

« إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » .

ويريد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث أنه يعلمنا أنه ليس في الإمكان إرضاء جميع الناس ببذل المال لهم ، ولكن يمكن إرضائهم ببشاشة الوجه ورقة الحديث وحسن اللقاء .

* * *

احترام الصغير للكبير وعطف الكبير على الصغير

ومن الآداب التي يحث الإسلام على اتباعها في معاملة الناس بعضهم لبعض ، لكي تقوى المودة بينهم أن يحترم الصغير الكبير ، ويعطف الكبير على الصغير ، لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم .

« ما أكرم شاب شيخاً لسنه ، إلا قيض (٢) الله تعالى له من يكرمه

عند سنه »

(١) تختلف الشيء : ندعيه كذا من صنعنا .

(٢) قيض : هياً وأرسل .

والرسول صلى الله عليه وسلم يدعوننا إلى هذا اللون من السلوك والأخلاق الحميدة ، فيبين أن كل شاب يكرم شيخاً ضعيفاً لسنه وشيخوخته ، فالله — سبحانه وتعالى — يرده إليه ، فيهيئ له من يكرمه إذا كبرت سنه .

والإكرام ألوانه كثيرة ، وصوره مختلفة ، فإذا كنت جالساً في مكان مزدحم ، ورأيت عجوزاً واقفاً فقامت من مكانك لتجلسه مكانك ، أو إذا شاهدت شيخاً يحمل حملاً ثقيلاً فساعدته على حمله ، أو عاونته على ركوب سيارة عامة ، أو عبور الطريق العام المزدحم ، كان كل ذلك — إن فعلته إكراماً منك لهؤلاء الشيوخ — موضع الثواب عند الله .

وهذا الحديث النبوى الشريف يدعونا بصفة عامة إلى إكرام من هو أكبر منا سناً ومساعدته ، ولو لم يكن شيخاً .

بجانب ذلك فإن هذا الحديث يدعو الكبير إلى العطف على الصغير ، بأن يتسم له ويفرح ببلقائه ، ولا ينهره ولا يقسو عليه ، وأن يوجهه وينصحه في لين ، ويمنحه خبرته وتجاربه وعلمه في عطف .

مثل هذه المعاملة بين الصغير والكبير تخلق بينهما المودة ، وتربطهما برباط الحب ، فلا نفور ولا كراهية .

* * *

وبجانب الكلمة الطيبة وبشاشة الوجه واحترام الصغير وعطف الكبير على الصغير نادى الإسلام في معاملة الناس بعضهم لبعض بمبدأ التعاون والتراحم بين الناس جميعاً ، إذ ينبغي أن يرحم المؤمن أخاه المؤمن ، ويشفق عليه ، ويقف بجانبه في وقت الشدة ، ويزوره في داره ، ويعوده في مرضه ، ويتقرب إليه بما تيسر من الهدايا، ويتعهده بما يحتاج إليه، ويدفع عنه الأذى ، ويجول بينه وبين الشر ، ويجب أن يشعر كل مؤمن بالألم الذى يحل بأخيه المؤمن ، ويسعى في دفعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

حَسَنُ مَعَامَلَةِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَاءِ السَّبِيلِ

نادى الإسلام بحسن معاملة اليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

« وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ » .

والله في هذه الآية يطلب الإحسان لليتامى . . . واليتيم هو كل صغير أو صغيرة - لأب له - ، وإن كان ذلك اليتيم غنيا - لكن المراد منه في الآية الكريمة اليتيم المحتاج . يأمر الله الأغنياء أن ينفقوا عليه من فضل أموالهم ، شكرا لله تعالى ، واستزادة منهم لإحسانه عليهم ، وقد وعد الله سبحانه الشاكرين له في قوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

إن اليتيم المحتاج جدير بأن يكون موضع رعاية الأغنياء وعنايتهم بشأنه ، يقومون له بحاجاته ، وعلى تربيته وتعليمه ، وتنقيفه وتهذيبه ، حتى ينشأ نشأة حسنة ، ويروا فيه رجلا كاملا صالحا . وكل ولد عرضة لليتم والفاقة من بعد والديه . ولهذا قال الله تعالى : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) .

واليتامى كثيرون ، ولو تركهم الأغنياء ، ومنعوا الإنفاق عليهم ، وفرطوا في حسن تقويمهم لنشئوا على كثرتهم مفسدين ، لا عمل لهم إلا ارتكاب الأخطاء ، وانتهاك الحرمات ، والسعي في الأرض فسادا . وليعلم الأغنياء أن اللوم حينذاك إنما هو واقع عليهم لا على اليتامى ، لأنهم هم الذين فرطوا في توجيهم وتقويمهم . أما المساكين الذين ذكرتهم الآية

الكريمة فهم الذين لا يجدون ما ينفقون ، فمنهم من لا يجد شيئا ، ومنهم من يجد القليل الذي لا يفي بحاجاته ، فلا يشبع بطنه ولا يستر جسمه .

فإذا نحل الأغنياء بالقليل من أموالهم ، وتركوا هؤلاء المساكين فريسة للفقر ، فإن الفقر قد يدفعهم إلى الجريمة ، فيستبيح لنفسه سرقة أموال الناس وقتل الأبرياء منهم . وكثيرا ما تألفت منهم العصابات ، تهاجم المدن والقرى ، تنهب الأموال ، وتقتل الأبرياء ، وتهتك الأعراض ، وتهدد الآمنين ، وتشغل الشرطة عن التفرغ لحل مشكلات الناس .

لهذا كله كان الإحسان المنظم بشتى وسائله الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ضروريا ليصلح من شأنهم ، ويخفف من أضرارهم . أما ابن السبيل ، وهو المسافر الغريب الذي نصد ما كان معه من نفقة السفر ، وتعذر عليه الوصول إلى وطنه وأهله - فلكونه غريبا منقطعا عن أهله مجهولا - بين الله تعالى للسائلين ، أن في مال القادرين حقا لهذا المسافر يجب أن يهدوه ، له عند الحاجة له ، حتى يستطيع العودة إلى أهله ، ويتمكن من الرجوع إلى وطنه .

إن حكمة الله سبحانه وتعالى من هذا التشريع واضحة جلية ، فإن الأغنياء إن لم يدركوا هذا المسافر المحتاج ، ولم يسعفوه بسد حاجته ، زادت حياته سوءا على سوء ، وانتهى أمره إلى ما لا يرضاه الله ولا الناس ، فتدفعه الحاجة إلى السرقة وسلب أموال الناس وأكلها بالباطل ، فيكون عرضة لغضب الله تعالى وسخطه ، مستحقا لعقاب السارقين والمفسدين معا .

وليس من المساكين الذين يستحقون الصدقة هذا الذي ادعى العجز ، واحترف التسول ، وأخذ يمر على الناس ليأخذ منهم بعض ما يحتاجه ، إن مثل هذا ينبغي أن يردع ولا يعطى ، ولأنه يندع غيره ، وإنما المسكين هو الذي ينطبق عليه قول الرسول :

« ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والثمرة
والثمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن (١) له فيتصدق
عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس » .

وقال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْمَسْكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ
قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً
مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

والزكاة التى فرضها الإسلام ليست تبرعا ، ولا تفضلا ، وإنما هى دين
وحق للفقير على الغنى ، ووسيلة لدعم البناء الاجتماعى للمجتمع ، إذ تسد
حاجة الفقراء ، وتؤمن المجتمع من خطرهم ، وتحصن أموال الأغنياء من
عدوانهم ، قال تعالى .

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » .

* * *

تحدثت عن اليتيم المحتاج ، أما اليتيم الذى له مال فقد نهى الإسلام عن
القرب من ماله إلا بحق ، محافظة على مال هذا الصغير ، ولهذا قال الله
تعالى فى كتابه الكريم :

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » .

فلا ينبغى للأوصياء (٢) على اليتيم التصرف فى ماله إلا بالطريقة المثلى ، وهى
حفظه وصيانته وتنميته ، على الوجه المشروع الذى أجله الله ، حتى يصل اليتيم

(١) لا يفطن له : لا ينتبه إليه لتعففه .

(٢) الوصى على اليتيم هو المشرف عليه وعلى ماله والموجه على حياته بعد وفاة والده
حتى يبلغ سن الرشد .

إلى تمام عقله ورشده ، وحينئذ يدفع إليه ماله ، يتصرف فيه ، والله يتولاه بتوفيقه ، والله سبحانه جعل الحكام وأولى الأمر مشرفين على الأوصياء ، يسألونهم ويحاسبونهم فإذا رأوا تصرفهم محمودا حمدوهم ، وإذا رأوا غير ذلك عاملوهم بحكم الله في الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما .

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا . »

* * *

وأمر الله تبارك وتعالى بحسن معاملة اليتيم فقال :

« فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

من هذه الآية الكريمة نجد وجوب حسن المعاملة ولطف المجاملة مع اليتيم الذي فقد أباه وهو صغير ، والسائل الذي الجأته الحاجة والفاقة إلى ذل السؤال .

فحسن المعاملة مع اليتيم أن لا يقهره ويخزئه ، وأن لا يأخذ منه حقا من حقوقه ، وأن يكون كالأب الرحيم للولد البار فيسعى في إنماء ماله إن كان له مال ، وفي تعليمه وتربيته ، ويحسن معاملته فلا يلدله ولا يهينيه ولا ينهره .

ووصى الله جل شأنه بحسن معاملة اليتيم في هذه الآية وفي آيات أخرى من القرآن الكريم ، لأن اليتيم الذي مات أبوه إذا لم يجد من يقوم بما كان يقوم به أبوه ، فلا شك ينشأ على الأخلاق الفاسدة والطباع الرذيلة ، فيكون بذلك شرا على المجتمع وعلى نفسه وأسرته .

وحسن معاملة السائل تكون إما بإجابة ما يتطلبه مع عدم التكبر والفحش في القول ، وإظهار الفضل عليه ، وإما برده بلين ولطف ، أو باعطائه ما طلب .

ولا يحسن بعامل أن يتقلب في نعمة من نعم الله ، ولا يرى من الشكر عليه أن يمنح أخاه المؤمن شيئا لا يؤثر في ثروته .

قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَكَلِمَةُ طَيِّبَةٍ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ (١) اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ (٢) لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى (٣) ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

« قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى - كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءً (٤) النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ (٥) عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا (٦) لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا (٧) ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(١) في سبيل الله : في وجه الخير : لطلب مرضاة الله .

(٢) يضاعف = يزيد الثواب بما لا يحصى .

(٣) المن : أن يذكر النعمة لمن أحسن إليه متباهيا فخورا = تعداد الإحسان على المحسن إليه

(٤) رثاء الناس ، يرائي بها الناس فيظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصد مدح الناس

له أو شهرته بالصفات الجميلة .

(٥) صفوان : الصخر الأملس .

(٦) وابل : مطر شديد . صلدا : أملس يابس لا شيء عليه من ذلك التراب .

(٧) لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا : لا ينتفعون بشيء مما انفقوا ، لا يتألون

به ثوابا .

وَمَثَل الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ (١) كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ (٢)، أَصَابَهَا وَابِلٌ (٣) ، فَآتَتْ أُكُلَهَا (٤)
ضَعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌ (٥) وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

-
- (١) تثبيتاً من أنفسهم : تصديقاً و يقينا بأن الله سيجزيهم على صدقاتهم خير الجزاء .
(٢) الربوة : المكان المرتفع من الأرض .
(٣) وابل : زار منهبر .
(٤) أكلها : سرها .
(٥) الطل : الرذاذ وهو المطر القليل .

مَعَامِلَةُ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ

رابطة الإسلام رابطة متينة قوية ، أقوى من رابطة الدم ، وأقوى من رابطة القبيلة ورابطة الوطن . هذه الرابطة القوية تفرض على المسلم واجبات يؤديها لأخيه المسلم ، فلا يتعدى على حقوقه ، ولا يتركه وحده وقت المحن والشدة ، ولا يحط من قدره ، ولا يقلل من شأنه ، ولا يسلبه ماله ، ولا يؤذى سمعه ، ولا يضر صحته .

وعلى كل مسلم أن يحافظ على دم أخيه المسلم ، فلا يقتله ، ولا يغدر به .
قال تعالى :

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ، فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا .
وعلى كل مسلم أن يحافظ على شرف أخيه المسلم ، لا يلوّثه ولا يقذفه ، ولا يفتابه .

وعلى المسلم أن يبعد عن النفاق ، فلا يظهر الخير ، ويبطن الشر ، ولا يظهر الوفاء ويخفي العداوة .

وعلى كل مسلم أن يحافظ على مال أخيه المسلم ، لا يسرقه ولا يعرضه للضياع أو التلف أو الخسارة . لقد حرم الله أخذ مال الغير بالباطل .

* * *

ومن حسن معاملة المسلم لأخيه المسلم ألا يتحدث عن عيوب أخيه ، وينسى عيوبه ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

وفي الأحاديث النبوية الشريفة التالية صورة لما تجب عليه معاملة المسلم

• لأخيه المسلم

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه (١) ولا يخذله (٢) ولا يحقره (٣) ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه ، إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا . ويشير إلى صدره ، لا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال »

و قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس »

لا يحسن بمن أصيبت يده أو قدمه أن يشغل نفسه بإصاية غيره ، ويترك معالجة جسمه مما أصيب به ، كذلك لا يحسن ممن ابتليت نفسه بعيب من العيوب النفسية أن يغفل عنها ويهملها من المعالجة والمداواة ، ثم يشغل نفسه بعيوب غيره .

ابدأ بنفسك فانها عن غيرها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

إن من يشغل نفسه بعيوب غيره ، لا يخلو من ثلاثة أغراض : فإما أن يكون غرضه الشبهة والمجاهرة بسروره بذلك ، وإما أن يقصد التشهير بمن يتحدث عنه ، وإما أن يدعى إظهار التحسر لما ابتلى به ، ومن البدهة أنه لا شيء من الأمور الثلاثة يصلح أن يكون عذرا مقبولا ، يرر إهمال عيوب نفسه واشتغاله بعيوب غيره .

رحم الله مسلما أصلح أمور نفسه ، وترك عيوب الناس .

(١) لا يظلمه : لا ينقصه حقه . (٢) لا يخذله : لا يتخلى عنه وقت الشدة .

(٣) لا يحقره : لا يحط من قدره . (٤) بحسب امرئ من الشر : يكفيه من الشر .

ويأبى الإسلام أن يسخر المسلم ، من أخيه أو يحقره ، أو يناله بسوء
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا
مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ
وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَغْتَبِ
فَالثَّنَّ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ
إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ
أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ .

يدعونا الله في آياته الكريمة بأن لا يسخر أحد بأحد ، ويستخف به
ويستحقره ، ولا يعيب أحد على أحد بشيء يكرهه ، ولا يدغو أحد أخاه
بلقب يكرهه ، ولا يسيء ظنه بأحد من إخوانه المؤمنين ، ولا يبحث
ويفتش عن عورات المسلمين ومعايبهم ، ويستكشف ما ستروه ولا يذكر
أخاه بما يكرهه في غيبته ، فإن ذلك كله مما نهى الله عنه ورجب في
التباعد عنه .

ونهى الله عن أن يعيب أحد غيره بقوله : (ولا تلمزوا أنفسكم)
أى لا يعيب بعضكم بعضاً بقول أو فعل أو إشارة ، لأن المؤمنين كنفس
واحدة ، فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، وهذا أدب
الله ، أدب به عباده المؤمنين ، ليكون سببا في اتحادهم وارتباط قلوبهم .

ونهى عن أن يدغو أحد أخاه بلقب يكرهه بقوله : (لا وتنازوا
بالألقاب) أى لا يدع أحد أخاه بلقب يكرهه ، لأن ذلك يزرع في القلوب
الضغينة والحقد والبغضاء .

ونهى الله عن سوء الظن بالناس بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .

ونهى عن البحث والتفتيش عن عيوب الناس وعوراتهم بقوله : (وَلَا تَجَسَّسُوا) أى لا تبحثوا عن عورات المسلمين ، ولا تستكشفوا عما ستروه ، فإن فى ذلك فضيحة لهم ، وتعرضاً لما لا يغنى ولا يفيد ، ونهى عن أن يذكر أحد أخاه بما يكرهه فى غيبته بقوله : (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) ؟ أى لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكرهه فى غيبته سواء أكان ذلك باللسان ، أم بالفعل ، أم بالإشارة ، أم بالكتابة ؟

وسواء أكان ذلك الشيء المكروه الذى يذكره نقصاً فى بدنه ، أم نسبه ، أم خلقه ، أم فى فعله ، أم فى دينه ، حتى فى ثوبه وداره وماله ، وولده وزوجته

فذلك مما كرهه الله ، ونهى عنه حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتاً ، ذلك الأمر المستبشع طبعاً وعقلاً وشرعاً .

* * *

ومن حق المسلمة على المسلم والمسلمة تجنب قذف النساء بالسوء ، فهو من أقبح الذنوب ، لذلك اعتبر القاذف فاسقاً لا تقبل شهادته ، وجعل الله عقابه ثمانين جلدة ، وهذا ما جاء فى آياته البينات قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

أما عن آداب دخول المنازل والمسكن فقال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا
أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ
أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » .

أى لا يدخل الواحد منكم على غيره فى بيته الذى هو فيه ، حتى يستأذن
فى الدخول ، فإن أذن له دخل وإلا رجع ، والنهى عن الدخول بلا إذن
يشمل الأقارب والأجانب والرجال والنساء والبصير والأعمى ، لأن حكمة
الاستئذان التحفظ من اطلاع الناس على أحوال غيرهم الداخلية ، سواء
أكان بالنظر أم بالسمع ؟ وسواء أكان المطلع صديقاً أم عدواً ؟ قال رجل
للنبي صلى الله عليه وسلم أستأذن على أمى ؟ قال نعم ، قال ليس لها خادم
غيرى ، أستأذن عليها كلما دخلت ؟

قال أتحب أن تراها عريانة ؟ قال لا . قال فاستأذن عليها .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
حق المسلم على المسلم خمس : « رد السلام ، وعبادة المريض ، واتباع
الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » .

(رواه البخارى ومسلم)

التضامن الاجتماعي

بين المسلمين

عن أبي سعيد - رضى الله عنه - قال : قال صلى الله عليه وسلم :
« من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له
فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

(رواه مسلم ، وأحمد ، وأبو داود)

ومعنى ذلك أن الإنسان إذا كان على سفر ، ورأى أخا مسافرا مثله ،
وكان يملك دابة أو سيارة ، وأخوه بلا دابة أو سيارة تساعده للوصول إلى
المكان المطلوب ، فعلى صاحب الدابة أو الدواب أن يعطيه دابة أو أن
يحمّله معه على دابته ، ليحميه من متاعب الطريق ، وعلى من له سيارة
أن يحمّله معه في سيارته .

ويقول صلوات الله عليه :

« من كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

فالإسلام لا يرضى عن الإنسان يشيع ، وقريبه أو جاره جائع ، وعنده
الكثير الزائد عن حاجته .

والإسلام لا يرضى أن تترك الأغنياء بقايا الطعام ، بينما يعاني
آلام الجوع بعض اليتامى والأرامل والشيوخ .

الفضل : الزيادة عن حاجته .

الظهر : الدابة التي يركبها المسافر .

يعدّ به على : فليعطه إياه .

وفضل الزاد وفضل الظهر ، ليسا إلا مثلين ، للتطبيق والممارسة على باقي أمور الحياة .

ولا شك أن مثل هذا التعاون والتضامن والإخاء يخلق المودة والحب بين الناس والمجتمع .

* * *

وبثلاث توصيات أوصانا بها النبي صلى الله عليه وسلم وضع أساسا للتضامن الاجتماعي بين المسلمين إذ قال :

« من نفس (١) عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

• ففي التوصية الأولى يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

من نفس كربة مكروب في الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

والكربة هي الشدة تنزل بالمرء يضيق بها صدره ، وتطمس أمامه طرق التفكير ، فلا يجد ملجأً يلجأ إليه ، ولا مسلكاً يسير فيه ، فتقف به حركة الحياة ، فيماؤه اليأس ، فيرتد على عقبيه خاسراً دنياه وآخرته .

وقال أيضاً في التوصية الثانية :

• « من يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة »

والعسر هو الضيق المالى ، ينزل بالمرء حتى لا يجد قوت نفسه ولا قوت أولاده ، فيضيق صدره ونفسه وبمن يعول . وقد يشتد به الأمر فيسرق أو يقتل أو يلقي بنفسه من شاهق جبل أو بناء، وتكون الكارثة على أسرته ،

(١) نفس كربة = خفف عنه آلام الهم والضيق .

فتسحطم أو ترممل ، فكأن من يسر على معسر يكون قد أنقذ الأسرة
وأسهم فى إنقاذ المجتمع .

وقال أيضا « من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » .

• فهذه التوصيات يتحقق للمسلم ستر الله واليسر بعد العسر ، والفرج
بعد الضيق .

وفى هذه التوصيات صور متكاملة تحقق للمسلمين التعاون والتضامن
الاجتماعى .

أدب التحيّة والحديث

في الإسلام

كان محمد صلى الله عليه وسلم معلم الأمة الإسلامية ومرشدتها إلى السلوك الإنساني الطيب الذي يساعد على نشر المحبة والتآلف بين الناس . ومن السلوك الإسلامى الطيب المبادرة بتحية الناس والجماعات ، لأنها تبعث الألفة وتخلق المودة والطمأنينة بينهم . أما ترك التحية فيؤدى إلى الجفاء ، وهو مظهر من مظاهر التكبر والاستعلاء ، ولذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم كل مسلم إلى تحية الإسلام كلما قابل واحدا أو جماعة من المسلمين

قال تعالى : « وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ ، فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا »

وقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديثٍ له : « أَلَا أَدُلُّكُمْ

عَلَى شَيْءٍ إِنْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَّبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ . »

ولما كانتِ التَّحِيَّةُ مِنْ دَوَاعِي الْأُفْقَةِ وَالْمُودَةِ عَلَّمَنَا اللهُ تَعَالَى كَيْفَ

نَرُدُّهَا فَقَالَ « وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ

كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا » وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِذَا

التقى المؤمنانِ فَسَلِّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ وَتَصَافَحَا ، كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى

اللهِ تَعَالَى أَحْسَنُهُمَا بِشَرًّا بِصَاحِبِهِ) وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ فَقَالَ :

(تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) .

وَتَحِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْإِقَاءِ هِيَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم » .
(رواه مسلم)

* * *

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : السلام عليك يا رسول الله .

فقال الرسول : « وعليك السلام ورحمة الله » .

ثم جاء رجل آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ، ورحمة الله .
فقال الرسول : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » .

ثم جاء رجل ثالث فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

فقال الرسول : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » .

فقال للرجل : يا رسول الله ، إنك زدت فلاناً وفلاناً في رد التحية ، ولم تردني .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إنك لم تترك لي شيئاً أزيدك ، فرددت عليك بمثل ما قلت .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لخادمه « أنس بن مالك » :

« يا بني ، إذا دخلت على أهلك فسلم ، تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك »

حتى أحاديث المجالس تناوها الإسلام في القرآن الكريم والأحاديث النبوية واضعاً لها القواعد والأصول ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، وإن أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة . (أخرجه أبو داود والترمذى)

ومن أدب الإسلام : أن يوسع لجليسه إذا أقبل عليه ولا يضيق عليه ، وأن يجلس بين يديه بغاية الأدب والسكينة والوقار إذا كان أكبر منه سناً أو علماً ، وخصوصاً إن كان أباه أو شيخه ، وأن يرحب به ويقبل عليه إذا حدثه ، وأن لا يمد رجله بين يديه ، ولا يضع رجلاً على الأخرى بحضرة من هو أكبر منه إن كان ذلك يغضبه ، ولا يبصق ولا يتمخط إلا في « منديل » موارياً وجهه عن جليسه . وإذا تئأب فعليه أن لا يصحب التثاؤب بصوت ، وعليه أن يضع يده على فمه ، وقد قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ .

* * *

ومن الواجب مقابلة الناس بغير عبوس ، فالبشاشة رسول المودة ومفتاح القلوب ، وبها تهدأ النفوس الغاضبة والأعصاب الثائرة .

وقد قال الله تعالى لنبيه الكريم :

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ (١) يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ،

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا . »

(١) ينزع : يفسد بين المسلمين وغيرهم بالوسوسة والتي تهيج الشر

وترشد هذه الآية الكريمة إلى ما علمنا الله إياه من حسن الأدب في المحادثة والمخاطبة ، فقد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم وأحاديثهم للكلام الحسن والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزع الشيطان بينهم ، وألقى بينهم العداوة والبغضاء فهو عدو الإنسان يتربص به الدوائر ، ويتربص له الفرص في حصول الشحناء بينه وبين أخيه الإنسان .

* * *

ومن أدب الإسلام حسن الحديث ، لأن لسان زلات ، وله خطره ، ولا نجاة من خطره إلا بتقييده ووقوف صاحبه عند الحدود والخضوع لآداب الإسلام ، فلا يطلق لسانه إلا من أجل حق يوضحه أو باطل يمنع ، أو حكمة ينشرها ، أو نعمة يذكرها ، وألا يتكلم إلا بقدر الحاجة والضرورة ، وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام ، وألا يتكلم فيما لا يعنيه ، وأن يتجنب في حديثه كل ما يكدر مخاطبه ، لمنع بندر بذور العداوة والأحقاد بين الناس .

ما أصدق قول الشاعر العربي :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه

وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

فعثرته من فيه (١) ترمى برأسه

وعثرته بالرجل تبرا على مهل

* * *

ومن أدب الحديث في الإسلام الحث على خفض صوت المتحدث ، لأن علو الصوت أكثر مما ينبغي أمر منكر ، فيه إثارة لاعصاب المستمع ، وأذى له ، ولهذا قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

(١) فيه : فه

« وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » .

وترشد هذه الآية إلى أن علو الصوت ، أكثر مما ينبغي ، يؤذى السامع ويثير أعصابه ، فلا يسهل بعد ذلك التفاهم والتقارب بين وجهات النظر بين المتحدثين أو المتخاصمين .

وقد شبهت الآية مثل هذا الصوت المنكر بصوت الحمير « النهاق » تنبيها على أن رفع الصوت أمر غاية في القبح والبشاعة .

* * *

وكان النبي لا يتكلم في غير حاجة ، وهو القائل :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت »

وكان النبي لا يتدخل بالكلام فيما لا يهمه ، وهو القائل أيضا :

« من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »

وكان النبي صلوات الله عليه لا يعبس في وجه محدثه ، ولا يتركه إلا إذا أقنعه ، وأرضى نفسه ، وكان يخاطب كل شخص على قدر فهمه وخبرته .

وكان يشرح نفس محدثه ودائما كان يقول « بشروا ولا تنفروا »

وكان النبي يقبل على من يحدثه بوجه مبتسم ، ونفس صافية ، ولهذا كان دائما يقول :

« إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، وإنما يسعونكم بسط الوجه وحسن الخلق »

• وكان لا يتعجل محدثه ولا يقطع عليه الحديث .

الوفاء بالوعد والعهد ورد الأمانات إلى أهلها

أمرنا الله تعالى بحفظ الأمانات ، وردها إلى أصحابها ، ولن تعيش الناس آمنة مطمئنة إلا إذا أصبحت الأمانة عادة يحترمها كل الناس . ولهذا قال تعالى في كتابه الكريم :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ .

* * *

وفي القصتين التاليتين صورتان رائعتان للوفاء بالوعد ورد الأمانات لأصحابها عند العرب .

كان وفاء السموعل مضرب الأمثال ، وله قصة يتناقلها الناس جيلا بعد جيل .

لما قتل الملك حجر أبو امرئ القيس ، ومنع امرؤ القيس الشاعر المشهور من ملك أبيه ، أخذ أسلحته ودروعه وأودعها السموعل الذي عاهده على ألا يسلمها لأحد غيره .

ومضت الأيام ، ومات امرؤ القيس ، فسير ملك من ملوك الشام رسولا إلى السموعل يطلب منه الدروع والسلاح .

فقال « السموعل » للرسول :

لا أخون أمانتي ولا أعطيها إلا مستحقها .
فجاء إليه الملك بعسكره ، فدخل السموءل حصنه ، ووقف الملك
وجنده في خارج الحصن .

وفي أثناء الحصار عثر الجند على ابن للسموءل ، فأخذوه أسيرا ، ونادى
ملك الشام السموءل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ، فقال الملك :
لقد بات ولدك أسيرا عندي ، إن سلمت إلى الدروع والسلاح ،
سلمت إليك ولدك ، ورحلت ، وإن امتنعت ذمته على مرأى منك :
فقال له السموءل :

إنك إن قتلت ابني فعندي من يخلفه ، ولا عار في قتله ، فقد عاش
كريما ومات كريما ، أما نقض العهد فلا سبيل إليه ، لما يعقبه من العار .
فضرب الملك رأس الغلام بالسيف فقطعه ، وأبوه ينظر من فوق
الحصن ، ثم عاد هو وجنده من حيث أتوا .

ولما جاء ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح .
وبذلك صار السموءل مضرب الأمثال في الوفاء بالعهد :

فأى وفاء أعظم قدراً من هذا الوفاء ؟

ولن تعيش الشعوب آمنة مطمئنة إلا إذا ساد الوفاء بين أفرادها
وجاعاتها ، وفي القصة التالية تصوير رائع للوفاء بالعهود في عصر الإسلام .

* * *

بينما كان الخليفة عمر بن الخطاب ذات يوم جالسا يقضى بين الناس
وحوله أكابر الصحابة ، إذ أقبل غلامان مسكان بشاب من ثيابه ، ويقولان
إنه قتل أباهما ولذلك يطلبان القصاص (١) :

(١) القصاص : الجزاء العقوبة .

ولما سأل الخليفة الشاب لم ينبكر ما اتهمه به الغلامان ، ولكنه قال إنه كان يرعى إبله فتسللت إحدى النياق (١) إلى بستان قريب ، وإذا بشيخ يرميها بحجر فيصيب منها مقتلا ، فما إن رأى الشاب ناقته وهي تتلوى حتى فقد صوابه ، وتناول نفس الحجر ورمى به الشيخ رمية كانت القاضية .

قال عمر :

أما وقد اعترفت بجرمك ، فلا يبر من القصاص .

قال الشاب :

السمع والطاعة . . . عندي ودائع (٢) وأموال أحب أن أردّها إلى أصحابها ، فهل لك أن تعينني على ذلك بإخلاء سبيلي الآن ، على أن أعود إليك غدا ؟

فرفض عمر في أول الأمر ، خشية أن يكون الرجل مخادعا ، ثم قال للغلام :

ومن يضمنك ويكفل عودتك ؟

فتلفت الشاب بين الحاضرين ، وأشار إلى أبي ذر وقال :

هذا يضمنني

قال عمر :

ما رأيك يا أبا ذر ؟

قال أبو ذر :

أضمنه لثلاثة أيام ، ولو أني لا أعرف من يكون بين العرب ، ولا إلى أي قبيلة ينتسب ؟

(١) النياق ، جمع ناقة وهي أنثى الجمل

(٢) ودائع : جمع وديمة وهي الشيء الذي تأمن عليه غيرك فتضعه عنده .

وعندها أذن الخليفة للفتى بالانصراف .

ولما انتهت الأيام الثلاثة أقبل ولدا القنيل يطلبان توقيع القصاص ،
لكن الفتى لم يكن قد حضر . . . فأعلن عمر على مسمع من أبي ذر :

والله لئن لم يحضر لأقضين في أبي ذر بشريعة الله !

فأخذ الحاضرون يتهامون ، وكلهم مشفق على أبي ذر أن يذهب
ضحيه مروءته ، وراحوا يعرضون على الغلامين دية أبيهما وهما يرفضان .
وفجأة أقبل الشاب والعرق يتصبب من جبينه ، ووقف بين يدي
الخليفة يقول :

لقد سلمت الطفل إلى أخواله ، واثمنتهم على أمواله ، وجئت إلى
الخليفة ليفقد في قضاء الله .

فدهش الحاضرون ، وراحوا يهللون ويكبرون ، وأقبلوا على أبي ذر
مهنئين ، وأخذوا يشيرون إلى الغلام قائلين :

والله ما أكرمه من غلام .

وعند ذلك تقدم الشبان إلى الخليفة ، وهما يقولان :

يا أمير المؤمنين . . . لقد عفونا عن هذا الشاب ووهبنا له دم أبينا ،
لأنه صدق وعده ، وأوفى بالذمام (١) .

وعندئذ أكبر الحاضرون مروءة الغلامين ، كما أكبروا مروءة أبي ذر
ووفاء الغلام ، وانصرفوا وهم يرددون :

ومن يصنع الخير لا يعدم جوازيه (٢)

لا يذهب العرف (٣) بين الله والناس

(١) الذمام : العهد

(٢) جوازيه : مكافئته

(٣) العرف : المعروف : للصنع الجميل

مَعَامَلَةُ الْمُسْلِمِ الْغَيْرِ الْمُسْلِمِ

يدعو القرآن الكريم المسلمين إلى التسامح الديني ، ويدعوهم إلى حسن
معاملة غيرهم ممن ليسوا على دينهم ، ما داموا في سلم ، لا ينقضون عهدا ،
ولا يثرون فتنه .

قال سبحانه وتعالى :

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا (١) إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ،
إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ،
وظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

كما دعا الله إلى مخاطبة أهل الكتاب بالرفق ، وعرض الحججة الواضحة :

« وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ
وَاحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

وأمر الله النبي أن يساعد المشرك إذا لجأ إليه وأن يبلغه مأمته ،
إذ قال تعالى :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ (٢) فَأَجِرْهُ ، حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ،
ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ »

(١) تقسطوا : تعدلوا

(٢) استجار = طلب معونتك

وأمر الله المسلمين بأن يفوا بعهودهم لمن عاهدوا ، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين ، إذ قال سبحانه وتعالى .
« وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »

الإسلام لا يعرف تعصبا ، وليس فيه اتهام لنبي ولا تهجم على الرسل

* * *

ونص النبي على التسامح قولاً وفعلاً فقال نبينا الكريم :
من ظلم معاهداً (١) أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً
بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه (٢) يوم القيامة .

وأمر بالألا يجبر أحد من النصارى أو اليهود على ترك دينه . لهذا أظهر النبي وخلفاؤه وقادة المسلمين سماحة وكرم خلق . فيما عقده من صلح ومعاملة مع البلاد التي فتحوها مع أن شأن المنتصر عادة أن يملئ شروطه بالإكراه والقوة ، ولكن المسلمين كانوا في معاهداتهم مع المغلوبين عادلين ، فأقروهم على عقائدهم وشعائهم الدينية ، وحافظوا على أموالهم .

لقد أوصى أبو بكر أسامة بن زيد عندما أرسله إلى الشام قائلاً :

« لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل . وإذا مررتم بقوم في كنائسهم فاتركوا ما فرغوا أنفسهم له » .

وأوصى عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح خبيراً بأهل الأديان

الأخرى قائلاً :

(١) معاهد = من كان له عهد أو أمان

(٢) حجيجه = خصم له

« وامنح المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم ، والأكل لأموالهم
إلا بحق » .

فحقق أبو عبيدة ما أراد عمر ، وعاهد أهل الشام معاهدة كريمة ،
وأعطى أهل « إيلياء (١) » أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ،
وأنهم لا يضطهدون بسبب دينهم ، ولا يضار أحد منهم .

وكان عمر بن الخطاب بالشام ، وقد جاءت وقت الصلاة وهو في كنيسة
القيامة ، وأراد عمر الصلاة ، فطلب البطريرق (٢) أن يصلي عمر صلاته
بالكنيسة فاعتذر عمر قائلا :

أخشى أن أصلى في الكنيسة ، فيدعى المسلمون فيما بعد أنها مسجدهم ،
فيأخذونها من النصارى ويقولون : هنا صلى عمر .

وعندما فتح عمر بيت المقدس عقد معاهدة مع اسقفها جاء فيها :

« هذا ما أعطى عمر أهل إيلياء - بيت المقدس - من الأمان :

أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم وصلبانهم ، ولا يكرهون
على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . . . وعندما دخل عمرو بن العاص مصر
عقد مع النصارى اتفاقا استردوا به حريتهم الدينية (٣) ، ونالت كنائسهم
وصوامعهم ضمانا بحمايتها ، ودفعوا للوالى المسلم جزية قدرها عشرة قروش
للفرد الواحد في العام ، بينما كان الرومان يجمعون منهم ضرائب باهظة
أضعافا مضاعفة فوق كاهل الشعب .

ولما فتح المسلمون الأندلس أعفوا من الجزية القليلة غير القادرين .
وفي الحالات التي اعتدى فيها المسيحيون على المسلمين ، لم يحاكمهم
المسلمون أمام محاكم إسلامية ، بل حوكموا أمام قضاة من المسيحيين .

(٢) البطريرك : البطريرق : قائد ديني

(١) إيلياء : بيت المقدس

(٣) جزية : ما يؤخذ من أهل الذمة

وظل المسيحيون أحرارا في إقامة صلواتهم ، وبنوا عدة أديرة جديدة ،
وفضلا عن ذلك تولى بعض المسيحيين بعض المناصب العالية في قصور
الملوك والولاة ، وتعلموا اللغة العربية ، واندمجوا مع المسلمين بالمصاهرة .

وشهد شاهد من أهلها

واعترف كثير من المسيحيين واليهود بتسامح الإسلام وسماحة المسلمين .
قال البطريك (عيشويابه) الذى تولى منصبه عام ٦٤٧ - ٦٥٧ هـ :

إن المسلمين الذى مكثهم الله فى الأرض ليسوا أعداء للصراخية ، لأنهم
يوقرون قديسنا وقسيسنا ، ويحترمون كنائسنا(١) .

واعترف السير « توماس ارنولد » لقد عامل المسلمون الظافرون
المسيحيين معاملة كلها تسامح ، استمر عدة قرون . ونستطيع أن نقول :
إن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام إنما اعتنقته عن إرادة ورغبة ،
وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا الحاضر بين جماعات مسلمة
لدليل واضح على هذا التسامح .

وقد تحدث البابا شنودة الثالث بطريك الأقباط فى مصر فى لقاء الرئيس
السادات بالقيادات الدينية فى فبراير ١٩٧٧ ، عن سماحة الإسلام وقال :

الإسلام فى جوهره وفى روحه وفى أساسه يعامل غير المسلمين معاملة
طيبة ، نذكر من هذا الميثاق الذى أعطى لنصارى نجران ، والميثاق الذى
أعطى لقبيلة تغلب ، والوصية التى قدمها الخليفة الإمام عمر بن الخطاب
قبل موته ووصية الخليفة أبى بكر الصديق لأسامه بن زيد ، والميثاق الذى
أعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق ، والميثاق الذى أعطاه عمرو بن العاص

(١) أهل الذمة فى الإسلام تأليف ا . س . ترتون

(٢) الدعوة إلى الإسلام تأليف السير توماس ارنولد .

لأقباط مصر ، واذكر أيضا العبارة الإسلامية الجميلة - استوصوا بالقبط خيرا ، فإن لنا فيهم نسبا ورحما . واذكر أيضا الحديث الشريف « من آذى ذميا فليس منا العهد لهم ولأبنائهم عهد أبدي لا ينقض » يتولاه ولى الأمر ويرعاه .

هكذا أعطى الإسلام حرية الدين لغير المسلمين . اذكر أيضا في سماحة الإسلام حفظه في عهوده وموآثيقه للمسيحيين في كنائسهم وصوامعهم ورهباناتهم وأملاكهم وأرواحهم وكل شيء ، في كل هذا دليل قاطع على حسن معاملة المسلمين لأهل الأديان الأخرى . . . وهذا ما جاء به القرآن والسنة المحمدية .

معاملة الخادم والأجير

يعاون الخدم مخدوميهم في منازلهم ومتاجرهم وحقولهم ، ويقدمون لهم أجل الخدمات ، خصوصا إذا كان المخدوم شيخا أو مريضا أو مشغولا بأعمال أخرى ، لهذا منحهم الإسلام حقهم من العطف والعناية والرعاية ، وطالب الخدومين بأداء هذا الحق .

والإسلام سعى إلى خلق الحب والمودة والتعاون والإخاء بين أفراد الأسرة ، وبين الجار وجيرانه ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين الناس جميعا . حرص على خلق هذا الحب والإخاء والتعاون بين الخادم والمخدوم ، ليضمن ترابط المجتمع كله .

قال النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة « أنت أخونا ومولانا » . في هذا الحديث الشريف يقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن زيد ابن حارثة — وهو خادمه — أخوه في الإنسانية وفي الدين ، وما دامت هذه الأخوة قد جمعت بينهما ، فلا بد أن ينظر إليه نظرة الأخ إلى أخيه ، فيحترمه ويعطف عليه ، ويحبه ويحسن معاملته .

وقد حض النبي على الرفق بالخدم فقال : « إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وكان عليه السلام يؤاكل خادمه ، ويزوره في بيته ، ويتلطف مع أهله .

الخدم لإخواننا في الدين والإنسانية ، فعلى المؤمن أن ينظر إلى خادمه بظرة الأخ إلى أخيه . ومن أجل هذا وجب أن تكون معاملتهم مبنية على أساس من العطف والرحمة ؛ بأن يكون العمل الذى يكلف به الخدم محدودا ، وفى طاقتهم القيام به ، مع إرشادهم إلى طريقة العمل المرضية ، وشكرهم عند الإحسان ، وعدم تعنيفهم عند التقصير ، ومعاملتهم بالرفق والعطف ، وضرورة مواساتهم فى الشدة ، وعيادتهم عند المرض ، وإحضار الطبيب لهم إذا ساءت حالتهم .

ويجب على المخدم أن يرشد خدومه لمواقع الصواب ، وما ينبغى أن يتصفوا به ، وأن يربهم باللطف والحزم ، ولا يهينهم بقبح الألفاظ ، مما يجرح قلبهم ، ويذل نفوسهم ، إذ ليس للسيد أن يتسلط على خادمه بذلك لا شرعا ولا عرفا ، ويجب عليه كذلك أن يسمح للخادم أو الأجير بساعة من النهار يتروح فيها ويتمتع بشئونه ، وأن يجرى عليه راتبا يناسبه . وأن يزيد فى راتبه أو أجره ، كلما رآه مجدا مخلصا فى عمله .

ويجب على السيد ألا يكثر من اللوم والتقريع فى كل مناسبة ، لأن الخادم أو الأجير إذا شعر بأن تصرفاته معرضة على الدوام للنقد وعدم الاستحسان ، امتنع عن الإقدام حيث يكون الإقدام واجبا ، وكف عما يجب أن يعمل فى ساعة الحاجة الشديدة لهذا العمل .

ويجب ألا يفوت المخدم إعطاء الخدم رواتبهم فى المواعيد المحددة ، التى سبق الاتفاق عليها ، لأن فى تأخير دفعها مشقة لهم ، إذ يضطرونهم العوز وتجبرهم الحاجة إلى الاستدانة ، وهذا مما يدعوهم فى بعض الأحيان إلى الانفصال عن المخدم .

ويجب أن يعلم الخادم من بدء مباشرة الخدمة أن ترك عمله ومكان

خدمته يجب أن يكون مسبقاً بإعلان منه ، وكذلك يجب ملاحظة ذلك إذا أريد الاستغناء عنه . ولكي يحصل الخادم على حقه يجب أن يؤدي كل واجباته كاملة . ومن المعاملة الحسنة أن يطعم السيد خادمه من طعامه ، وأن يلبسه من نفس ما يلبس ، وألا يكلفه ما ليس في طاقته : كأن يرهقه بالعمل المتصل ، أو يكلفه عمل ما لا يستطيع ، أو يرسله إلى مكان خطر على حياته .

فلا شك أن هذه المعاملة تشعره بالرضا والارتياح فيخلص في عمله . قال المعروف بن سويد : عندما رأيت خادماً أبي ذر يرتدي حلة مثل حلة سيده عجبت ، وسألت أبا ذر ، فقال لي : هذا أخي في الدين .

* * *

لقد شامت رجلاً وحقرته^(١) منادياً : يا ابن الأمة ، فأنكر النبي على ذلك وقال :

« إنك امرؤ فيك جاهلية^(٢) . هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم^(٣) ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

كان أنس بن مالك ، يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فجلس يوماً يتحدث عن أخلاق النبي وحسن معاملته ؛ فقال : كان رسول الله أحسن الناس خلقاً : خدمت رسول الله عشر سنين ، فما سمعت منه يوماً ، كلمة أغضبته ، ولا رأيته تأفف يوماً من شيء فعلته ، وكنت أفعل ما أفعل ، وأترك ما أترك ، فلا يسألني . لم فعلت هذا ؟ حتى لقد كنت

(١) حقرته : نقصته ونسبته الى العار والعيب .

(٢) فيك جاهلية : فيك صفات مدمومة من خصال أهل الجاهلية .

(٣) تكلفوهم : تحملوهم جهداً ومشقة .

من حسن معاملته - أحس كأني أنا السيد ، وما شعرت في يوم من الأيام أنني خادم عنده .

هذه وصايا الإسلام وتقاليده التي رفعت من شأن الخدم والأتباع ، فالخدم ومن في حكمهم إخوان في الدين والإنسانية فيجب الرفق بهم ، والأخذ بيدهم ومعاملتهم بالعدل والحسنى ؛ وعليهم الطاعة والوفاء لمن يعملون معهم .

وبجانب هذا يجب أن يعمل الخادم أو الأجير بكل وفاء وإخلاص ، لا يهمل ، ولا يخون ، ويكون لئال مخلدومه وسيده حافظا وواعيا وأمينًا .

معاملة الحيوان في الإسلام

اجتمع نحسون عالما من أنحاء العالم المختلفة ببروكسل في أواخر ١٩٧٧ الماضي لافتتاح العام العالمي « لحقوق الحيوان » . . وأشارت إلى أن وثيقة إعلان هذه الحقوق عالميا ، تصدر مستوحاة من إعلان « حقوق الإنسان » .

وهذه ظاهرة محمودة من ظواهر الرحمة والرفق بالمخلوقات الحيوانية التي خلقها الله وسخرها لخدمة الإنسان ، وليس لتغذيتها والتمثيل بها ، وقتلها بأساليب منكرة مثلما يحدث في مصارعة الثيران على املاء حاشدة من الناس ، ابتغاء للهو والمقامرة .

غير أننا ما نراهم قد جاءوا بمجديد في هذا الاعلان أو ذاك ، فلقد سبقهم الإسلام في تقرير هذه الحقوق منذ أربعة عشر قرنا ، وبلغ في ذلك نجاحا لم تبلغه هيئة الأمم المتحدة مع وفرة مالديها من قوى الدعم القانوني والدولي والمالي ، عمت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم الفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل ، حتى الحيوانات والطيور كانت موضع عطف النبي ورحمته ، إذ قال :

كان رجل يمشى في الطريق فاشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها ، فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث (١) ، يأكل الثرى (٢) من العطش .

(١) يلهث : يخرج لسانه من العطش .

(٢) الثرى : التراب اللين .

فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي كان بلغ منى ، فزل
البئر ، وملاً خفه (١) ماء ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له .

قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم (٢) لأجرا (٣) ؟

فقال : في كل ذات كبد (٤) رطبة أجر .

وقال النبي صلوات الله عليه :

« دخلت امرأة النار في هرة ، فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من
خشاش (٥) الأرض » .

وكان بعض الصحابة مسافرين مع رسول الله ، فرأوا عصفورة ؛
معها فرخان لها ، فأخذوها ، فجاءت العصفورة ترفرف بجناحها فلما
جاء الرسول قال :

من فجج (٦) هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها .

• وأراد جزار ذات مرة أن يذبح شاة فانطلقت هاربة منه ، حتى وصلت
إلى رسول الله ، وكان جالسا بالقرب منها . وجاء صاحبها وجرها بعنف
من ساقها ، فأوصاه النبي بأن يسحبها برفق ، وأن يحسن ذبحها .

عن أبي يعلى شداد بن أوس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم

(١) التجف : ما يلبس في الرجل .

(٢) البهائم : المراد الحيوان والطيور .

(٣) اجرا : ثوابا ومكافأة .

(٤) كل ذات كبد رطبة : المراد كل كائن حي .

(٥) خشاش الأرض : حشرات الأرض وبعض ما فيها من ديدان وكائنات حية .

(٦) اوجج : ألم .

فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ،
وليرح ذبيحته » .

كيف نعى بدواب الركوب

من حق الدابة المعدة للركوب أن لا يركب عليها ثلاثة في آن واحد .
فقد أخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال : « نهى رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يركب ثلاثة على دابة ، وأخرج ابن أبي شيبة أنه رأى
ثلاثة على بغل ، فقال : « لينزل أحدكم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لعن الثالث » وأخرج الطبراني عن علي ، قال : « إذا رأيتم ثلاثة على
دابة فأرجموهم حتى ينزل أحدهم » .

ومن المحرم في الشريعة الإسلامية : وقوف الراكب على الدابة وقوفا
يؤلها ، فقد ورد في سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : « إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم
لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » .

ولا يجوز الركوب على ما لم يخلق للركوب كالبقرة ، قال القاضي
أبو بكر بن العربي : « لا خلاف في أن البقر لا يجوز أن يحمل عليها ،
وذهب كثير من أهل العلم إلى أن المنع من ركوبها نظرا إلى أنها لا تقوى
على الركوب ، إنما ينتفع بها فيما تطيقه من نحو إثارة الأرض وسقى الحرث »
هذا مع عدم تكليف أنثى الحيوان الحامل بما لا تستطيعه فهي في هذه
الفترة تحتاج إلى الراحة .

ولا يجوز أن يكون مقود الدابة ضارا بها . فقد ورد في الصحيح :
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال « لا يبقين في رقبة بعير قلادة من
وتر إلا قطعت » فذهب بعض أهل العلم في فهم الحديث مذهب الرحمة
بالحيوان وقال : إنه أمر بقطع القلائد من أعناق الدواب مخافة اختناق
الدابة بها عند شدة الركض لأنها تضيق عليها نفسها .

وحرمت الشريعة الإسلامية الإساءة إلى الحيوان بتحميله من الأثقال ما لا يطيق . وكان الصحابة الكرام يعرفون أن من حمل دابة ما لا تطيق حوسب على ذلك يوم القيامة . فقد روى عن أبي الدرداء أنه قال لبعير له عند الموت « يا أيها البعير لا تخاصمني عند ربك .

* * *

ومن الفنون التي تشيع هنا وهناك ما لا يتم إلا بتعذيب الحيوان بإغراء بعضه على بعض وتهيجه ، كصارعة الثيران ، ومصارعة الديكة ، والكباش ونحو ذلك ، أو نصبه غرضاً للرماية والصيد أو قتله بدون فائدة ، ولا منفعة ، أو إرهاقه بالعمل الشاق وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية ذلك من الفعل المحرم الذي يستحق العقوبة . فقد روى عن ابن عباس قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم » رواه أبو داود والترمذي .

آداب الطريق

ما من كبيرة أو صغيرة إلا وضع لها الإسلام النظام الصحيح ،
والحدود السليمة التي تمنع الأذى والضرر عن كل إنسان ، حتى الجلوس
والوقوف والمشي في الطريق وضع لها الضوابط والقواعد الصحيحة .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إياكم والجلوس في الطرقات . فقالوا : ما لنا بذلك (١) . . إنما هي
مجالسنا نتحدث فيها .

قال النبي : فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا :
وما حق الطريق ؟ قال :

غض البصر ، وكف الأذى (٢) ، ورد ، السلام والأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر » :

• وحق الطريق على السائر في الطريق أن يخفض بصره ، فلا ينظر إلى
المحرمات ، لأن الطريق يمشى فيه البنات والنساء ومداومة النظر إليهن
يؤذيهن ، وفيه اعتداء على حرمت الناس ، ومخالفة لتعاليم الدين .

وقال تعالى في هذا الصدد :

« وقل للمؤمنين يغضوا (٣) من أبصارهم »

(٢) منع الضرر

(١) لا غنى لنا عنها

(٣) يفض من بصره : يخفض بصره ولا يحملق

أما النظر إلى خضرة. النبات وزرقة السماء فإنه يشرح الحاطر ويسر النفس ، ويذكرنا بعظمة الخالق .

ومن حق الطريق وآدابها أن يمنع الجالس في الطريق أذاه عن كل من يمر في الطريق ، بأن يكون مهذبا في ألفاظه ، لا ينطق بقول جارح يؤذى المشاعر ، ولا ينطق بعبارات تجرح شعور البنات والسيدات ، ولا يسخر من بعض الناس لعيب في أجسامهم أو لسوء ثيابهم ، كما يفعل بعض الشبان الذين يقفون في مفترق الطرقات .

* * *

ومن حق الطريق . ألا نلقى الأقدار أو ماء الغسيل أو قشر الفاكهة فيها ، ومن حقها أيضا ألا نجلس فيها فنقيد حرية الساكنين فيها أو نمنعهم من قضاء مصالحهم .

ومن حق الطريق أن نرد السلام فإذا ألقى أحد المارين السلام على من يجلس فيها ، وجب عليه رد التحية أو بأحسن منها .

ومن حق الطريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كأن يدعو الجالس في الطريق إلى مساعدة محتاج أو معونة ضعيف أو إزالة الأذى عن الطريق ، أو إرشاد الضالين أو التائبين .

ومن حق الطريق أيضا أنه إذا رأى أحدنا شخصا يعتدى على آخر منعه من عدوانه . وإذا رأى سائقا يحمل حيوانا فوق قدرته أو يؤذيه نهاه عن قسوته . وإذا وجد بائعا يغش المشتري نهاه عن غشه .

الإسلام دين السلام

يقيم الإسلام بين أبنائه وبين الناس العلاقات على أساس من الأخوة والمحبة ، ويكره كل ما يشوه هذه العلاقات أو يسبب ضعفها .

و يقيم علاقات المسلمين بين أبنائه وبين الناس على أساس من التسامح والاحترام المتبادل ، من غير عصبية ولا إثارة المشاحنات .

لهذا قال الله سبحانه وتعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً » .

ويقول تعالى :

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وفي موضع ثالث يقول :

« وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ » .

ترشد هذه الآية إلى بيان ما أمر الله به من حسن المعاملة مع صنوف الخلق ، الصغير منهم والكبير ، فإن أغضبوه صبر ، وإن شتموه حلم ، وإن أساءوا إليه عفا عنهم ، فإن فعل ذلك صار العدو حبيبا والبعيد عنه قريبا . وهذا ما عناه الله تعالى عندما قال :

« اذْفَعِ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلَّى حَمِيمٌ » .

أى خذ بالحسنة التي هي أحسن وادفع بها السيئة ، فإن ذمك إنسان
مدحته أو اعطيته ، قاده ذلك إلى محبتك ، وأصبح صديقاً حميماً . وهذا
بلوره يؤدي إلى الصفاء والمحبة بين الناس .

* * *

والإسلام لم يشرع الجهاد إلا دفاعاً عن المؤمنين وعن دينهم وكيانهم
ولم يشرعه لإكراه على دين أو لغاية انتقامية أو لرغبة استعمارية ، ولكن
أمر به عند التأكد من أن العدو ترك السلم ولجأ إلى الحرب .

والإسلام عند ما يلجأ إلى القوة يلجأ إليها كوسيلة لمنع الحرب ، على
أساس المبدأ القائل « استعد للحرب لتمنع الحرب » . والإسلام عند ما أباح
الجهاد منع قتل الضعفاء من الأطفال والنساء والشيوخ والعباد المنفطعين
للعبادة ، ومنع إتلاف الزرع والضرع عند القتال .

وإذا اختلفت طائفتان من المسلمين فقد شرع الله حكمه في ذلك قائلاً :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ
إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ
فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »

طائفتان : جماعتان

بغت : اعتدت

اقسطوا : اعدلوا

والمقصود بهذه الآية الكريمة إذا اختلفت طائفتان من المسلمين ، ووقعت بينهما حرب ، وجب التدخل بينهما بالصلح . فإذا قبلت إحداهما الصلح ورفضت الأخرى ، وجب الوقوف ضد التي رفضت حتى توافق على المصالحة . ولا يجوز أن يجعل رفضها للصلح أول الأمر سببا في التشدد عليها ، بل يجب على المصالح أن يكون العدل رائده ، غير متأثر بأى شيء .

والمؤمنون جميعا إخوة ، جمع بينهم الإسلام ، فلا يجوز أن يسكت أخ على خصام وقع بين أخوين ، وحينما يتدخل ليصلح بين مختلفين ، فإنه يصلح بين أخويه ، فلا يجحد عن طريق الحق والعدل ، وليتق الله في حكمه ، فالله يرحم من يعدل .

تَقَالِيدُ الْحُرُوبِ وَأَدَابُهَا

ومعاملة الأسرى

قبل الدعوة الإسلامية لم يكن للعرب تقاليد يتبعونها في حروبهم وقتالهم مع عدوهم ، بل كانت شريعة القوى والضعيف هي السائدة بينهم ، والويل للمهزوم .

وعندما جاء الإسلام تأثرت حياة العرب كلها ، وتأثرت الحرب بالعقائد الإسلامية وتعاليم القرآن ، وأصبحت للحروب عندهم تقاليد ، تتفق مع الجوانب الإنسانية ، وأصبحت الحرب دفاعاً عن دينهم ووطنهم ، أو دفاعاً لضرر أو خطر ، مع تجنب الإضرار بالنساء والأطفال والشيخوخ ، مع عدم التعرض لرجال الدين في الأديرة والكنائس ، وعند النصر لا إكراه في الدين ، ويتضح ذلك من الآية الكريمة التالية :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ (١) الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (٢) وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ (٣) لَاتَعْلَمُونَهُمْ ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ،

(١) الرباط : اسم للخيل التي تعد للقتال ، والمراد هنا القوة التي ترابط على حدود البلاد لتدافع عنها .

(٢) ترهبون : تخيفون .

(٣) من دونهم : من غيرهم من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ (١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ (٢) وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٣)
وَأِنْ جَنَحُوا (٤) لِلنَّاسِ (٥) فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ (٦)
الْعَلِيمُ (٧) ، وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ (٨) فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ (٩) ، هُوَ الَّذِي
أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ (١٠) وَبِالْمُؤْمِنِينَ (١١) ، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ (١٢) . لَوْ أَنْفَقْتَ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ (٣) ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ،
إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٤) .

-
- (١) وما تنفقوا من شيء لإعداد القوة من مال أو غيره قليل أو كثير .
(٢) يوف إليكم : تناولون جزاءه كاملا .
(٣) وأنتم لا تظلمون : لا تنقصون شيئا من جزاء الإنفاق .
المعنى : علينا أن نكون مستعدين دائما للقتال ، وأن نمد أنفسنا بكل أنواع القوة .
الاستعداد للقتال يخيف الأعداء ويجعلهم لا يجراؤن على الاعتداء .
(٤) جنحوا : مالوا ورغبوا .
(٥) للناس : للصلح والسلام .
(٦) هو السميع : يسمع كل ما يقوله الكفار . والمقصود : إن مال الأعداء إلى مسالتكم بعد ما رأوا قوتكم فسالموهم .
(٧) العليم بما يسرون ويضمررون .
(٨) أن يخدعوك : يميلهم إلى السلم وإظهاره خداعا ، وهم ينوون الحرب والقتال .
(٩) فإن حسبك الله : فسيكفيك الله شرهم بنصره عليهم .
(١٠) أيدك الله بنصره : قواك ويمينك على الانتصار كما في غزوة بدر .
(١١) وبالمؤمنين : من اتبعوك من المهاجرين والأنصار .
(١٢) وألف بين قلوبهم : فاجتمعوا على محبتك ، وأحب بعضهم بعضا بعد الذي كان بينهم من الضغائن والمصيبة .
(١٣) ما ألفت بين قلوبهم : ما وفقت بينهم .
(١٤) عزيز : كامل القدرة ، لا يستمضى عليه شيء مما يريد . حكيم : يعلم كيف يفعل ما يريد ، منزها عن الخطأ .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ (١) وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ (٢) إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا
مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

في هذه الآيات دعوة صريحة إلى إعداد العدة على قدر المستطاع ،
والتأهب بالقوة والسلاح وتحصين الحدود ، وتشديد الحراسة عليها ،
وتشديد القلاع بها . وليس الغرض من هذه الدعوة الاعتداء ، وإنما
الغرض منها إرهاب الأعداء ، حتى لا يقدموا على حرب أو قتال
وفي سبيل هذا السلم القوي يجب أن نبذل الأموال .

وفي الآيات بعد ذلك دعوة صريحة إلى السلام ، وبيان لما يجب
أن يتبع ، إن جنح الأعداء إليه ، كما أن فيها حثا للمؤمنين على القتال ،
دفاعا عن الحق ، وجهادا في سبيل الله وإعلاء كلمته .

* * *

وفي العام الثالث عشر من الهجرة وجه المسلمون الجيوش لفتح بلاد
الشام التي كانت خاضعة يومئذ لدولة الروم ، واختاروا لقيادتها مشاهير

(١) يكفيك أن يكون الله ناصرك .

(٢) حرض المؤمنين على القتال : حثهم عليه ، ودرغهم فيه بكل ما أمكن من الأمور
المرغوبة .

القواد مثل عمرو بن العاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبي سفيان .

ولما وجه يزيد بن أبي سفيان خرج أبو بكر يشيعه ماشيا ، ثم وصاه بالوصية الآتية لينتفع بها في قتاله مع الروم .

« إذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم ، وأقلل مكثهم حتى يخرجوا من عسكري وهم جاهلون به ، وأنزلهم في ثروة عسكري (١) . وامنع غيرك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم .

ولا تجعل شرك لعلايتك ، فيختلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة .

واسمر بالليل في أصحابك تأتلك الأخبار ، وتتكشف عندك الأستار ، وأكثر حرسك ، وبلدهم في عسكري ، وأكثر مفاجأتهم في محارستهم (٢) بغير علم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل (٣) ، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة ، فإنها أيسرهما لقربها من النهار .

ولا نخف من عقوبة المستحق ، ولا تبالغ فيها ، ولا تسرع إليها ، ولا تغفل عن أهل عسكري ففسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم (٤) ، واكتف بعلايتهم ، ولا تجالس العباين ، وجالس أهل الصدق والوفاء .

(١) الثروة : العدد الكثير .

(٢) محارستهم : أماكن حراستهم .

(٣) أعقب بينهم : اجعلهم يتناوبون العمل فيأتى الرجل عقب الآخر .

(٤) لا تكشف الناس عن أسرارهم : لا تكرمهم على إظهارها .

وقال أيضا :

« واصدق اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس ، واجتذب الغدر ، فإنه يقرب الفقر ، ويدفع النصر(١) ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له » .

هذه صور تصور التقاليد الحربية عند العرب بعد الإسلام ، وتصور كيف جمعت بين القوة والحزم والجوانب الإنسانية .

(١) يدفع النصر : يزيحه ويبعده .

سماحة الإسلام ومعاملة الأسرى

في ليلة من ليالى الصيف التقى الصليبيون بجنود صلاح الدين الأيوبي فقتل من قتل ، وجرح من جرح ، وأسر من أسر ، وعادت فلول الصليبيين إلى معسكرهم تجر أذيال الفشل والخيبة ، وتقول « هيلانة » التي كانت في انتظارهم : إن زوجها قتل في سبيل الشرف والجهاد ، فصرخت « هيلانة » صرخة مدوية مفزعة ، ثم اندفعت تبكي بكاء حاراً ، وتقول :

لقد مات زوجي ! ! لقد فقدته إلى الأبد . . . كيف أعيش مع غيره ؟ وكيف تطيب لي الحياة من بعده ؟
فصاح أحد الجنود قائلاً :

— اضبرى يا « هيلانة » إن روح زوجك ضعدت إلى السماء تاركة لك في ولدك الصغير العزاء والسلوى . . . جاهدى من أجل ولدك . . . إنه ابن الحبيب الراحل . . . أسعديه يا هيلانة تسعد روح زوجك في السماء .
ثم دخلت « هيلانة » خيمتها تكفكف دموعها وتضم وحيدها ، وهي تقول :

— ولدي الحبيب . . . دعني أضمك إلى صدري يارمز سعادة ولت . . . فيك أودع آمالي . . . وبين يديك تثبت أحلامي . قاتل الله الحرب . . . قاتل الله الحرب التي حرمتني طلعة الزوج وبسمة الحبيب . ثم نامت هيلانة بجانب طفلها واستسلمت له .

وقبيل الفجر تسلل جنديان من جنود صلاح الدين ، واختطفوا الطفل الصغير الراقد بجوار أمه « هيلانة » وهرولا^(١) به في الظلام إلى خيمتهما .

(١) هرولا : أسرعاً .

وفي أثناء سيرهما صباح أحدهما قائلاً :

ماذا ترى السلطان صلاح الدين قائلاً لنا ؟ أنراه راضياً عن عملنا ؟
وهو الذى أوصانا ألا نعرض للنساء والأطفال ، وألا نمس الأعزل بسوء ،
وأن ندع القسوس ، ولم يسمح لنا إلا باختطاف المحاربين والجنود ، أفلا تحسبه
يكره ما أتينا هذه الليلة ، ويكون غضبه علينا أضعاف رضاه عنا يوم
خطفنا ذلك القائد من فراشه ؟

فأطرق الثانى كأنما كان يفكر فى غضب السلطان ، ويبحث عن سبيل
الخلاص من هذه الوهدة^(١) التى سقطا فيها ، ثم رفع رأسه فجأة وقد
أشرق وجهه بنور الأمل وقال له :

لماذا يغضب ؟ أليس الله قد أباح لنا أن نرد العدو ان بمثله ؟
أما هاجونا هم بمثل هذا أول مرة ، وروعوا^(٢) نساءنا وسرقوا أطفالنا ،
فلما صبرنا عنهم وترفعنا عن مقابلتهم بمثل فعلهم ، ظنوا ذلك عجزاً منا
فأوغلوا^(٣) فى عدوانهم الآثم الدنى ؟ أفندعهم يفعلون ما يريدون ؟

واطمأن الثانى بحجة زميله ، وارتاح لفعلة ، وأخذوا يواصلان المسير
حتى وصلا إلى خيمتهما ، دون أن يراهما أحد .

أما « هيلانة » فاستيقظت فجأة من نومها ، ومدت يدها لتحتضن
طفلها ، فلم تجده فى مكانه ، فهبت مذعورة تصيح وتولول وتقول :

ولدى !! . . . ولدى !! . . . أين ولدى ؟ هل اختطفه العرب
ثم أكلته الذئاب الضارية الجائعة ؟ . . . ابجشوا لى عن ولدى . . . بالأمس

(١) الوهدة : المكان المنخفض ، النزلة .

(٢) روعوا : أفرعوا وخافوا .

(٣) أوغلوا : أمعنوا وأسرعوا .

كنت أندب الزوج ، واليوم أندب الزوج والابن معاً . . . واحسرتاه . . .
واحسرتاه . . .

ويقبل الصليبيون نحو هذه الزوجة المسكينة والأم الشكلي^(١) فتصيح
قائلة :

ساعدوني وابحثوا لي عن ولدي . . . إنه قلبي وقرّة عيني .
ويراها قائد الحملة ، فيرق لها ، ويسمع لشكايتها ، ويتأثر لبكايتها
وحزنها ، ثم يشير عليها بالذهاب إلى صلاح الدين .
اذهبي أيتها المرأة الجازعة إلى صلاح الدين ، فسيرد طفلك ، وسيطفيء
نار حزنك ، إنه رجل شريف ومحارب نبيل .

وتردد المرأة وتبدو عليها الحيرة ، ويمضي في حديثه قائلاً :
لقد وقعت أنا نفسي في أسر صلاح الدين ، فلقيت في أسره الرحمة
والنبل وكرم النفس وعلو الهمة ، وخرجت من الأسر ألهج^(٢) بما لقيت
من الإعزاز والإكرام . . . وانطلقت الأم الواهية الجازعة إلى صلاح الدين ،
عملاً بمشورة القائد الفرنسي ، ولم تلبث أن مثلت^(٣) بين يدي القائد المسلم
العظيم ، فأفضت بين يديه جملة حالها ومبغث حزنها .

ويجيبها صلاح الدين :

أيتها المرأة ، إن شعار المسلمين قتال شريف ، بلا غدر ، وبلا خيانة
. . . إن الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى لا عمل لهم في حرب تشب
نارها بين الرجال الأقوياء .

(١) الشكلي : الحزينة الباكية لفقد وحيدها .

(٢) ألهج : أردد في لهفة (أتحدث مولعاً) .

(٣) مثلت : وقفت وشخصت .

ثم يصيح في عسكره :

ويل لمن خالف أوامري ، واختطف طفل هذه المرأة ، على بالطفل
وسيلقى خاطفه جزاءه .

ويحضر الطفل ، فتضمه أمه الجازعة ، وتنهمر دموع فرحها ، فتبلى
قبلاتها التي تغمر بها فمه وخديه وجبينه .

وإذ هي على هذه الحال ، تسمع صوتاً لأسير ينادى :

أريد مقابلة السلطان !!

وتتلقت المرأة نحو الصوت وتسمع لبراته ، الصوت صوت زوجها
الحبيب ، ولكن زوجها - وقد نعوه إليها (١) - قد مات ، فكيف
يحدث هذا أ يكون هو ؟ ويسمح للأسير بالدخول ، وتكاد المرأة
تسقط على الأرض لفرط ما أصابها من دهش إنه زوجها الحبيب
إنه حي . . . لم يمت كما نعوه لها ، وتصيح فرحة :

زوجي الحبيب على قيد الحياة ، لقد ظلموا هؤلاء العرب الأمجاد ،
لقد نعوه إلى قائلين :

« لقد قتله العرب في أسره » لله ما أظلم قومي وما أكذبهم !!

ويتعانق الزوجان ، وتنهمر الدموع ، ويطول العناق بعد لوعة
الفراق ، ثم يتكلم الأسير فيقول :

أيتها الزوجة الحبيبة ، لقد وقعت في أسر قوم كرام النفوس أعزاء ،
لا يقتلون أسيراً ، ولا يذلون عزيزاً ، إنهم أيتها الزوجة الحبيبة
محاربون شرفاء .

(١) نعوه إليها : أخبروها بموته .



ويطلق صلاح الدين سراح هذا الأسير ، فيخرج مع طفله وزوجته
إلى الأمل الباسم ، وإلى النور المشرق ، بعد اليأس والظلام .

ثم تسأل الزوجة زوجها :

ماذا أنت فاعل ؟

ويجبها الزوج :

إلى قرينتنا في أوربا .

ثم تتوقف الزوجة عن المسير ، وتقول لزوجها ضارعة :

إلى قرينتنا !! لا ، يا عزيزي ، لقد التقيت هنا بولدى بعد يأس ،

ولقيتك هنا بعد أن نعاك الناعى الكذوب . . . دعنا بالله عليك نقضى

بقية العمر في ظل طهارة هذه النفوس السليمة العزيزة الكريمة النبيلة .

مَعَاذِلَةُ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ

قامت أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، تحكم أمورها بكتاب إلهي ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يخضع لأحكامه وتعاليمه الحاكم والمحكوم ، والسيد والعبد ، والذكر والأنثى ، والكبير والصغير ، والعظيم والحقير ، قامت دولة محمد على الحرية والإخاء والمساواة والأخلاق الفاضلة ، لا على الحاجات المادية والمعيشية فحسب .

لهذا السبب جمعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بين أجناس متفرقة وشعوب مختلفة في اللون واللغة والعادات والتقاليد ، لا يربطها إلا المبادئ الصحيحة والأخلاق الكريمة .

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك كله بقوله :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم .

« لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » وقال صلى الله عليه وسلم :
« كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ألم يول النبي صلى الله عليه وسلم « بلالا » على « المدينة » وفيها أكابر القوم من الأنصار والمهاجرين ، وبلال عبد حبشي اشتراه أبو بكر وأعتقه ؟

ألم يجعل النبي عليه الصلاة والسلام « مهران الفارسي » واليا على اليمن

وهو فارسي الأصل ، ولما مات ولي ابنه من بعده ؟ وقد جرى أصحاب النبي وأتباعه على هذه السنة ، وكان حكام الولايات من أكثر الناس صلاحاً وإخلاصاً وعدلاً

كان العدل في محمد هو الأصل والأساس ، فالناس أمامه متساوون كأسنان المشط .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يستمد سياسته من قوله تعالى :

• وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل (١) .

وحث النبي مراراً على العدل في الحكم قائلاً : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه ، فجار (٢) في حكمه » .

• وفي قوله : ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلم يعدل فيهم إلا كبه (٣) الله في النار » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده ، مثلاً عالياً في تحقيق العدل ، كانوا يعدلون بين الناس حتى مع أنفسهم . حدث أن طلب رجل دينه من الرسول ، فأغلظ له القول ، فهم عمر بن الخطاب أن يضرب الرجل لغلظته مع الرسول ، فقال له صلى الله عليه وسلم : يا عمر كنت أحوج إلى أن تأمرني بوفاء الدين ، وكان هو أحوج إلى أن تأمره بحسن الطلب .

وسار الخلفاء الراشدون على النحو الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا أيضاً مثلاً حسناً للحاكم العادل .

(١) سورة النساء .

(٢) جار : ظلم

(٣) كبه الله في النار : زماه وألقى به فيها .

شكا إلى عمر بن الخطاب قتي من مصر : إذ سبقت فرسه فرس ابن عمرو بن العاص وإلى مصر ، فاغتاز فضربه بالسوط ، وقال له :

خذها وأنا ابن الأكرمين .

وذهب المصري إلى الخليفة ليشكو ، فاستدعى عمر بن الخطاب عمرو وابنه من مصر ، وأمر المصري أن يضرب ابن عمرو كما ضربه وأنب عمرو ، لأن ابنه لم يفعل ما فعل إلا اعتماداً على سلطة أبيه ، وقال كلمته التاريخية العظيمة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

ويروى عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها : أن قریشاً أرادت أن يصفح النبي عن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا :

لا يستطيع أن يشفع لها عند النبي في ذلك إلا أسامة بن زيد ، لأنه أحب الناس إليه ، فذهبوا إليه ، وطلبوا منه أن يشفع لتلك المرأة .

وما إن بدأ « أسامة » الحديث مع النبي حتى تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

أتشفع في حد من حدود الله ؟

فقال له أسامة : استغفر لي يا رسول الله .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في الناس وبعد أن أتى على الله قال :

أما بعد ، فإنما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد (١) ، وإني والذي نفسي بيده - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (٢) .

(١) أخرجه مسلم .

(٢) الحد : ما فرضه الدين من عقوبة وجزاء .

وكان عليه الصلاة والسلام مثال الحاكم الذى يتابع أحوال أمته ، فكان يراقب ولائته ، ويحاسبهم على أموال الدولة والناس .

قال عليه الصلاة والسلام : « ما من وال يلى شيئا من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة ، مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله » .

وقد نادى الإسلام بالشورى ، واتخذها أساساً للحكم ، إذ قال سبحانه

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

وعن أبى هريرة « رضى الله عنه » :

لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وعلى هذا النحو من العناية بالشورى مضى الخلفاء الراشدون ، لقد استشار أبو بكر أصحابه فيمن يلى الأمر من بعده ، وكان يرجع إليهم في اختيار الولاة والقواد ، وتسيير الجيوش ؛ وتوزيع الغنائم .

وكذلك فعل عمر بن الخطاب ، فلم يستقل دون أصحابه برأى في أمور الخلافة ، فاستشارهم عندما طلب منه عمرو بن العاص الإذن بفتح مصر ، واستشارهم فيمن يقود جيوش المسلمين في حرب فارس ، وأشاروا باختيار سعد بن أبى وقاص فاختره ، كما جعل الشورى في نفر من الصحابة ليختاروا من بينهم من يكون خليفة بعده .

والعمل بالشورى يحفظ حقوق الشعب ، ويضمن استقامة حكامه ، وحسن سير الأمور .

والشورى في الوقت نفسه مظهر من مظاهر الديمقراطية والمساواة وحرية الرأى .

وفرض الرسول صلى الله عليه وسلم على العالم أن يعلم الجاهل ، وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم .

وفرض على العالم ألا يمنع الناس علمه ، وألا يكتفم ما عرفه بين تعاليم الدين وأسرار الكون ، حتى لا ينفرد بالعلم وحده ، وقد جاء ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم :

« من كتم (١) علماً أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » .

وقال أيضاً : « خيركم من تعلم العلم وعلمه » .

وكان النبي الكريم دائم الدعوة إلى نشر العلم ، وكان خلفاؤه وأتباعه من بعده يسرون على نفس الطريق ، فقامت الحضارة الإسلامية على أساسين قوين هما : الإيمان والعلم .

وانتشر العلم في ظل الإسلام ، وأصبح هو النور الذي يضيء العالم في القرون الوسطى المظلمة ، وأصبح علماء العرب أساتذة العالم كله في هذه الفترة من الزمان .

وبفضل العلم تقدمت الزراعة والصناعة وأصبح أمة محمد صلى الله عليه وسلم في تقدم ورفاهية .

(١) كتم : اخفى

المعاملات المالية والتجارية في الإسلام

المعاملات المالية والتجارية

قامت المعاملات المالية والتجارية في الإسلام على أسس سليمة في طليعتها
الوفاء بالوعد والعقود .

نادى الإسلام بالوفاء بالعهد ، سواء ما يتعلق بالمال أو بغيره ، لأن
الغدر يضيع الثقة والطمأنينة ، وينزع الثقة من النفوس ، وفي ذلك اختلال
لنظام المعاملات بين التجار والناس جميعاً . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « وَأَوْفُوا
بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ
اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

إن الوفاء بالوعد والعهد ركن من أركان الأمانة ، وقوام الصدق ،
ودعامة من دعومات الثقة بين الناس في عالم التجارة .

* * *

وبجانب ذلك نادى الإسلام بالسماحة في البيع والشراء وعدم التلاعب
بالكيل والميزان ، كما دعا إلى عدم احتكار السلع وخزنها بغية استغلالها لربح
غير مشروع .

ووضع الإسلام آداباً للبيع والشراء ، لتحسن المعاملات بين الناس
قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« رحم الله رجلا سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا قضى ، وإذا اقتضى . »

ويبشر النبي صلى الله عليه وسلم برحمة من الله الرجل الكريم النفس ، السهل المعاملة ، الذى إذا باع كان سهلاً لينا ، لا يغالى فى الثمن الذى يتقاضاه ، بدعوى أن التجارة حرة .

وإذا اشترى لا يبخس الناس أشياءهم ، ولا يثقل على البائع بإطالة المساومة ، ولا يحقر من قيمة بضاعته ، ولا يضيع وقته بأن يطلب بضاعة مختلفة وهو لا يعتزم الشراء .

ويدعوننا الإسلام أن تؤدى الدين بساحة ، وأراح الناس من عناء المطالبة بما لهم ، مع شكرهم ، مقدرًا حسن معروفهم .

ويدعوننا الإسلام بأن نطالب بالدين ، من غير أن نشهر بالمدين أمام قومه وأهله والناس ، ولا نسرع إلى القضاء ، فإن حل ميعاد الدين والمدين فى حالة عسر نمهله إلى وقت آخر .

قال تعالى :

[١] « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ » .

فهذه التعاليم الإسلامية تدعو الناس إلى حسن المعاملة والساحة فى البيع والشراء والوفاء بالدين والمطالبة به ، فمن واجب المدين أن يعمل ما استطاع على أداء الدين فى ميعاده ، وألا يحاول التخلص والتهرب منه ، وقد أوضح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذه المعاملة بقوله :

السمح : السهل اللين قضى : أدى ما عليه من دين وحق ، اقتضى . طالب بحقه .

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » .

* * *

أما بخصوص الكيل والميزان ، وهذا أمر مرتبط بمعاملاتنا التجارية كل الارتباط ، فقال فيه سبحانه وتعالى :

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

في هذه الآية الكريمة أمر الله التجار وكل بائع أن يفي الكيل والميزان . وعدم مراعاة ذلك فيه سرقة وخيانة ومخالفة للعهد الذي تقتضيه عمليات البيع والشراء . أما إيفاء الكيل والميزان فأمر يكسب صاحبه شهرة الأمانة بين الناس ، ويحقق الثقة بين البائعين والمشتريين ، فيعود ذلك بالخير والرواج لكل الناس .

وفي وصف الذين يغشون في الكيل والميزان قال تعالى :

« وَيَلِّ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أي إذا أخذوا منهم مكيلاً يأخذونه وإفياً كاملاً . وإذا أعطوهم مكيلاً أو موزوناً يُعْطُونَهُ نَاقِصًا .

وكما يكون التطفيف في الكيل يكون في بقية الوحدات الوزنية والقياسية إن تطفيف الكيل والميزان ، واختلاس أموال الناس بهذا العمل الدنيء لا يصدران إلا عن يظن أنه لا يبعث يوم القيامة ، وأنه لا يحاسب على عمله ، ولهذا وبجهم الله شر توبيخ . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم

عظيم ، إنهم يبعثون ويحاسبون على النقيير والقطمير^(١) والحبة والذرة ،
ويساقون إلى النار وبئس القرار .

* * *

ويلجأ بعض التجار إلى جمع السلع وخزنها وحبسها ، ليتحكم في
أسعارها عندما تقل في الأسواق .

هذا النوع من الاحتكار غير مرغوب في الإسلام ، فقد روى
أبو مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من احتكر يريد أن يغالى المسلمين فهو خاطيء ، وقد برئ من
ذمة الله » .

وعندما أباح الله تعالى التجارة ذكر وصف التراضى فيها ، بين المشتري
مختاراً في الشراء ، وبين البائع مختاراً في البيع ، وكلاهما مختار في تحديد
الثمن الذى يشتري به أو يبيع ، فإذا كان المشتري مضطراً إلى الشراء
بأى ثمن ، فإن عنصر التجارة كما يراها الإسلام لا يكون قائماً ، إذ تفقد
أعظم عناصرها وهى حرية التبادل والبيع والشراء ، لأن الاحتكار والتجارة
شيئان متناقضان ، لأن التجارة الإسلامية تقتضى التراضى ، والاحتكار
لا يعتمد على الرضا ، بل يعتمد على استغلال حاجتك إلى الأشياء ، فتدفع
ما يملى عليك .

والأحاديث كثيرة فى أن الاحتكار حرام ، مهما تكن الأصناف
التي تكون موضع الاحتكار ، ما دام حبسها يضر بالناس ، سواء أكانت
طعاماً أم ثياباً أم غيرهما .

وقد اشترط الإسلام ليتحقق الاحتكار ثلاثة شروط : أولها أن يكون
قد انتهز فرصة الغلاء واختزن السلع لبيعها بأثمان فاحشة . والشرط الثانى

النقيير : النقرة فى ظهر النواة
القطمير : القشرة الرقيقة فى النواة
والمراد التنافه الحقيير

أن يتم الإحتكار والاختزان في فترة احتياج الناس إلى هذه السلع . والشروط الثالث أن تكون السلع المحتكرة تزيد عن كفايته وكفاية من يعولهم لمدة عام كامل . فإذا توافرت هذه الشروط الثلاثة فإن احتكار التاجر لسلعة أو مجموعة من السلع يكون إثماً وعملاً منافياً للدين ، لوجود الضرر الذي يحل بالناس بسبب ذلك ، إذ تباع السلع بأسعار مرتفعة ، لا تتناسب مع قيمتها ، ولا تلائم قدرة الجماهير على الشراء ، ولأن الربح في هذه الطريقة كسب نتيجة الاختزان والانتظار . والكسب بالانتظار حرام لأنه يشبه الربا ..

* * *

ويعمد بعض التجار إلى ترويح بضاعته الرديئة الكاسدة بالحلف على جودتها وسلامتها من العطب ، وهو يعلم أنه كاذب في إيمانه وأن بضاعته غير جيدة ، هو يلجأ إلى الحلف لكي يصدقه الناس ويقبلوا على شراء بضاعته ، فتروج في البداية : ولكن سرعان ما يعرف الناس حقيقة هذه البضاعة وقيمتها فيمتنعون عن معاملته ، فتكون نهايته الإفلاس . هذا فضلاً عن غضب الله عليه ، وفي هذا يقول النبي وهو أحسن القائلين :

« الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة (عن أبي داود .)

أى أنها تروج السلعة فتباع بثمان كبير ، ولكنها تنزع البركة وتضيعها .

ونرى بعض التجار يخفون عيوب سلعهم عن المشتري ، أو يظهرون الجيد ويخفون الرديء .

وبعض الباعة يخلط الطيب من السلع بالردىء ، أو يضيف إلى السلعة ما ليس منها ، ليرفع من قيمتها أو يزيد من وزنها .

وهذا نوع من الغش ، فيه ظلم للمشتري يحزنه ويضره ، ويؤدي إلى التشاجر ويسبب إلى سمعة البائع ، ويصرف الناس عن معاملته ، مما يؤدي في النهاية إلى إفلاسه . وقد جاء في الحديث الشريف :

عن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر في السوق على صبرة^(١) طعام ، فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللا ، فقال الرسول :

ما هذا يا صاحب الطعام ؟

فأجابه :

يا رسول الله أصابته السماء^(٢) فقال رسول الله :

ألا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

هذه أول حملة تفتيشية على مواد التموين يقوم بها النبي صلى الله عليه وسلم من أربعة عشر قرناً ، ويضبط فيها الغش ، ويحقق فيه ، ثم يصلر الحكم العادل على الغشاش ، فيخرجه من جماعة المسلمين ، ويرى نبينا الكريم في ذلك الغش لواحد من المسلمين غشاً لجميع المسلمين : من غشنا ليس منا .

* * *

ويلجأ بعض التجار إلى البيع بالمزادات العلنية ، يقيمها بعض التجار للغاشين ، ليوهوا البسطاء وعمامة الناس بأنها بضائع رخيصة بسبب تصفيتها

(١) الكومة من الطعام مما يباع بلا وزن ولا كيل

(٢) أصابته السماء : نزل عليه المطر

أو لدواعي السفر أو بسبب الحجز عليها ، أو ما يشبه ذلك من أسباب مصطنعة
لخدیعة الناس . وفي كل ذلك إغراء وغش ، وهذا أكل لأموال الناس
بالباطل ، وسرقه حفية في ثوب تجارة حرة .

وكان من تمسك المسلمين بهذه التعاليم الإسلامية والمبادئ السامية أن
الرجل إذا خرج من بيته يقول له أهله :

اتق الله ولا تكسب حراما ، فإننا نصبر على الجوع ولا نصبر على حر
جهنم .

وكان الإمام البخاری صاحب الصحيح يتكسب من التجارة ، فأتاه
من يساومه على شراء صفقة من الثياب بثلاثة عشر ألفاً درهم فلم يقبل ، فلما
ذهب المشتري ندم البخاری على أنه لم يبعه تلك الصفقة بما دفع من المال ،
ونوى أنه إن رجع ياعه إياها بذلك المبلغ ، ولكنه عاد إليه في اليوم الثاني
ودفع إليه خمسة عشر ألفاً ، فأبى البخاری أن يقبض أكثر من ثلاثة عشر
ألفاً ، فعجب المشتري من ذلك ، وقال له :

بالأمس دفعت لك هذا المبلغ فلم تقبل ، وأنا أدفع لك اليوم أكثر مما
طلبت بالأمس ، فما شأنك ؟

فأجابه البخاری : إني بالأمس كنت نويت أن أبيعك الصفقة بهذا
المبلغ إذا عدت ، وإني أخجل من الله أن أعود عن عزم قد عزمت عليه .

* * *

وحرص الإسلام على حماية الضعفاء ، فنهى عن تلقي الركبان^(١) مثل ما يفعل
التجار عندما يتلقى أحدهم الزارع الفقير قبل دخول السوق ليشتري
بما معه من سلعة بثمن بخس فيلحق به الضرر ، ثم يبيع هذا التاجر
نفسها للمستهلك بأضعاف ما دفع فيها فيضره كذلك .

(١) الركبان : الجماعة من راكبي الإبل

وكان أهم ما عني به النبي صلى الله عليه وسلم هو حرية السوق وإتاحة
الفرص المتكافئة للجميع ومقاومة كل سلطان يراد به التأثير بالامتياز .
فيقول الرسول : (لا تلقوا الركبان) .

وهذا الحديث يثبت عمل السوق ووظيفته - قبل أن يحددها الاقتصاد
الحديث بمئات السنين - لأن في السوق يتحدد السعر بين مجموع البائعين
ومجموع المشترين ، والرجل من أهل القرى لا يعرف حقيقة السعر قبل
أن يصل إلى السوق . ولهذا عملت الشريعة الإسلامية على حمايته بنهى التجار
عن تلقى الركبان ، وبترك السوق تقوم بوظيفتها في تحديد السعر المناسب
للبضائع .

كما يحرم الإسلام ترويح الزائف من النقود ، لأنه ظلم يلحق الضرر
بالناس الذين سيتداول النقد بينهم وهو ينشر الزور والفساد . ويقع الوزر
على من قام بترويح هذه النقود ابتداء ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم
يقول :

(من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، لا ينقص
من أوزارهم شيئا) .

ولذلك يرى فقهاء المسلمين أنه يجب على التاجر أن يتعلم النقد حتى
لا يسلم إلى مسلم زيفا وهو لا يدري ، فيكون آثما بتقصيره في تعلم ذلك العلم .
وعلى التاجر المسلم ألا يغالى في الربح لأن الربح الفاحش فيه غبن على
أخيه ، حتى أن بعض علماء المسلمين ذهب إلى أن الغبن يتحقق فيما يزيد
على الثلث .

كما يرون ألا يسترسل التاجر في الغبن ولو رضى المشتري لأن هذا
المشتري قد أمن له وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (غبن المشتري

— الذى أمئك — حرام) رواه البيهقى ، ولأن هذا الغبن يناقض الهدف
الأصلى من التجارة فى الإسلام بأن تكون للتيسير على المجتمع لا استغلاله .
ويقول تعالى وهو أصدق القائلين :

« واشهدوا إذا تباعتم » ولا شك أن الشهادة فى العقود انفى للشبهات
وأحفظ لقيمة العقد .

يذكر الإمام ابن القيم فى كتابه (الطرق الحكيمية) أن « لولى
الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند حاجة الناس
إليه ومن اضطر إلى طعام عند غيره ولا يحتاج إليه ، كان له أن يأخذه
بقيمة المثل ، ولو امتنع عن بيعه له بقيمة المثل ، فأخذه منه بما طلب
لم يجب عليه إلا قيمة المثل ، وذلك دفعا لضرر المحتاج وفى الوقت نفسه ،
لا ضرر على المالك ولا ضرار ، ولو امتنع أرباب السلع عن بيعها مع
حاجة الناس إليها وغالوا فى سعرها فللحاكم أن يسعر ، وأن يلزم بقيمة
المثل وأن يبيع عليهم ، وله إلزام الصناع والتجار وأرباب الحرف للقيام
بأعمالهم بالأجر المناسب .

والقاعدة العامة فى الإسلام : أن التسعير تلجأ إليه الدولة كلما كان
لضالغ الناس ومنفعتهم العامة فيه ، على أساس من العدل الذى هو قوام
المعاملات فى الإسلام .

لذلك يجب على الحاكم ألا يسرف فى فرض الأسعار الجبرية لاسيما
بالنسبة للسلع التى لا يضر بالناس حرية التعامل فيها لأن فى الإفراط فى
التسعير تقييدا للمعاملات وإضراراً بالمتعجين أو التجار بغير خبرة أو ضرورة
ملجئة ، ولأن النظام الإسلامى « لا يفرض التسعير فرضاً عشوائياً فى كل
حالة ، وعلى كل سلعة ، وبغير حكمه . وإنما جواز التسعير أو وجوبه كحكم

شرعى يدور مع علته وجودا وعدما . وعلته هى دفع الضرر عن الناس وتنظيم المعاملات على وجه عادل .

• أما كيف يتم التسعير فهذا ما يوضحه للمسلمين الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه بقوله : « يجب أن يكون البيع بأسعار لا تجحف بالبائع أو المبتاع ، فيجتمع الإمام أهل السوق الذى يراد وضع سعر له ويحضر غيرهم معهم استظهارا على صدقهم ، فيسألهم كيف يشرون وكيف يبيعون فينازلهم إلى ما فيه لهم وللعامه حتى يرضوا .

• أى يجتمع ممثلو المنتج والتاجر والمستهلك والخبير المحايد لوضع السعر المناسب للسلعة أو السلع المراد تسعيرها لأن الإسلام لا ينحاز إلى طبقة دون أخرى ، والجميع فى أمة الإسلام إخوة فلا يرجح مصلحة أخ على أخيه ولا أظن أن هناك تشكيلا للجنة التسعير أرقى من هذا التشكيل الذى وضعه الإمام على رضى الله عنه ، ولا أبعد للشبهة .

حماية المال الخاص العام

وأثره في حياة المسلمين

حث الإسلام المؤمن على الاعتدال، ونفره من أمرين • التبذير والتقتير،
إذ في الأول حفظ جسمه وماله، وفي الثاني حفظه من الألم والحسرة •
قال تعالى :

« ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان
لربه كفورا » .

وقال تعالى :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد
ملوما محسورا (الاسراء - ٣٩) .

نهى الإسلام المسلم أن يبخل بماله ، ولا ينفقه في مواضع الإنفاق
المشروعة ، وكذلك نهاه أن يسرف في الإنفاق ويتجاوزه إلى حد التبذير .

إن كلا من هذين النقيضين ذميم ؛ لأن التفريط والإفراط في كل أمر
مجلبة للضرر وسوء العاقبة واستحقاق للوم والنقد .

مغلولة : الغل طوق من الحديد يجعل في عنق المذنبين . وقد تضم اليد إلى العنق داخل
الغل . وهو دليل على البخل .

ولا تبسطها : البسط ضد للقبض وهو كناية عن الإسراف والتبذير .
فتتعد : فتصير

ملوما : اللوم هو الكلام على وجه التخطئة والتوبيخ .

محسورا : نادما على سوء ما فعلت ، وعاجزا عن الإنفاق وعن تدارك ما فات من فعل
البر والخير لنفسك ولغيرك .

إن كلاً من البخيل والمبذر يعطل حكمة الله تعالى التي من أجلها جعل الأموال قواماً للناس ، وأساساً تبنى عليه مصالحهم ، ووسيلة صالحة يتوسلون بها إلى قضاء أعمالهم ، ونيل حاجاتهم . وهذا ما وصفه الشاعر العربي بقوله :

بين تبذير وبخل رتبة

وكلا هذين إن دام قتل

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى أن يسيروا في إنفاقهم لأموالهم الطريق الوسط المعتدل ، لا ينحرفون عنهم إلى الجانبين الممقوتين ، جانبي البخل والتبذير .

وفي هذا الصدد قال سبحانه وتعالى :

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً
(الفرقان - ٦٧)

الإسراف يفسد الأخلاق ، ويحطم القيم ، لأنه يؤدي إلى الترف والانحلال ، ويحمل على سلوك كل طريق للحصول على المال ، فتشيع في المجتمع الوسائل المحرمة للكسب ، وقد تصير أمراً مقبولاً ..

والإسراف إلى جانب أضراره الأخلاقية يحول دون توافر أهم وسائل التنمية الاقتصادية ، وهو تكوين رؤوس الأموال ، فهو يبدها ، ويضعها في غير مواضعها ، وبذلك لا تقوى الأمة على مواجهة متطلبات البناء والقوة ، وتكثر فيها مشكلات البطالة ونقص ضروريات الحياة ، مما ينجم عنه عادة إثارة القلاقل والاضطرابات ، وهذا يضاعف من الأضرار وانتشار الخلل في الحياة الاجتماعية .

فالإسلام حين حرم الإسراف إنما يريد مع حماية الأخلاق من أوزار

الترف والانحلال ، وأن يكون للأمة رصيدها الذاتي من الثروة التي تكون سلاحها في القضاء على كل ما يعترض سبيل نهضتها وعزتها .

وإذا كان الإسراف محرماً وعدم الإحسان في الانتفاع بالمال محظوراً ، فإن الوجه المقابل لهذا وهو التقدير والبخل وحبس المال عن التداول كالكنز والاحتكار محظور كذلك ، لأن الضرر الذي يسببه التقدير ونحوه كالضرر الذي ينجم عن الإسراف وما يشبهه ، فهذا وذاك خروج بالمال عن وظيفته في الحياة ، فيصبح وسيلة للشر والفساد لا نعمة للعيش والبقاء .

لقد حرم الإسلام التقدير ، وذم الشح والبخل ، وحذر من الاحتكار والكنز ، ونهى عن تعطيل المال ووقف نموه وحركته ، فقد أمر القرآن بالتوسط في الإنفاق ، وبين أن البخل شر ، وأن الآخذين به والداعين إليه قد جحدوا فضل الله ، وليسوا من الناجين يوم لقاءه :

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً) النساء - ٣٧ .

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم) آل عمران - ١٨٠ .

وأما الذين يكتزون المال ويجسونه عن التداول فهم آثمون ، ويتنظروهم العذاب الأليم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، حيث تكون الأموال التي جمعوها وكنزوها من وسائل هذا العذاب :

(والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون) التوبة - ٣٤ ، ٣٥ .

وهؤلاء الذين يحتكرون السلع ، أو يحتكرون استغلال الموارد العامة كما يحدث في عقود الامتياز - هؤلاء يثرون دون جهد يتكافأ مع الثروة

التي آلت عن طريق حبس السلعة عن التداول الطبيعي في الأسواق ، أو فرض الأسعار المرتفعة لعدم وجود المنافس في الإنتاج .

وقد وردت عدة أحاديث في النهي عن الاحتكار ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ » رواه مسلم وأبو داود . و « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » رواه أبو داود .

وهؤلاء جميعا الأشحاء والكانزون والمحتكرون يخضعون في سلوكهم لشهوة المال والشغف به لذاته ، وحب المال لذاته غاية الضلال ، فهو يعنى عن الحق ، ويستبيح كل المحرمات والمنهيات في سبيل الحصول على المال .

ومما يدور في نطاق حبس المال عن التداول وكأنه كنز له ، عدم استغلال مصادر الثروة ، أو ترك أموال ناقصي الأهلية دون استثمار ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال .

« اتجروا في أموال اليتامى حتى لا تأكلها الصدقة » رواه الترمذى .

إن التبذير والإسراف يبدد الثروة ، والكنز وما جرى مجراه يعطل المال عن التداول والحركة ، وفي هذا وذاك إضرار بمصلحة الجماعة ، لأنه في كلا الحالتين تتعرض الحياة الاقتصادية لما يعوق نموها فتعرض الأمة من ثم لمختلف الأضرار والأخطار ، ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام ، ولذلك كان تحريم التقدير والتبذير وما إليهما حماية للمال ممن تملكه وحازه ، وكان هذا التحريم فضلا عن أثره في تربية النفوس واستقامة نظرتها نحو المال ، حماية للنشاط الاقتصادي من الضعف والاستقرار الاجتماعي من القلق والاضطراب .

وأما حماية المال من غير مالكة فإن الإسلام حرم كل اعتداء على المال ، وأخذ له دون حق ، وقرر العقوبات والحدود الكفيلة بردع المعتدين ، حتى لا تمتد يد إلى مال بغير وجه مشروع . (م - ٨)

مَالُ الدَّوْلَةِ

دعا الإسلام إلى العمل الشريف ، لأنه أساس ثروة الأمة وقوتها وعزتها ، وأساس الحياة الحرة الكريمة للأفراد والجماعات . وقد وضع الإسلام للناس وسائل العمل والكسب الشريف ، ولم يترك الباب مفتوحاً ليدخل منه الجشعون والباحثون عن الثراء بأية وسيلة ، شريفة كانت أو غير شريفة ، بل وضع من القيود ما يجعل الكسب حلالاً ، بعيداً عن الاستغلال والاحتكار والاستيلاء على مال الغير بدون حق . فالكسب الحلال هو ما جاء عن طريق أحلته الشريعة الإسلامية كالعمل والبيع والشراء ونحوها . أما الربا والرشوة والسرقة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابن اللثبية » لجمع الزكاة في إحدى المناطق ، فلما رجع لاحظ النبي صلى الله عليه وسلم أن الرجل يقدم قدراً مما جمعه من مال ، ويحتجز لنفسه قدراً آخر ، فسأله النبي عن ذلك فأجابه : بأنه يقدم ما جمعه للزكاة ، ويحتجز لنفسه ما أهدي إليه .

عندئذ غضب الرسول وصعد المنبر ، وخطب المسلمين متعجباً مما يفعله بعض الولاة من قبول الهبات والعطايا والهدايا ، مع أنهم لو بقوا في بيوتهم لن يقدم لهم أحدا شيئاً . إن قبولهم الهبات والعطايا والهدايا خيانة للمسلمين ، ثم يقسم عليه الصلاة والسلام ، إن من يفعل ذلك فضحه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد(١) .

(١) على ملاء وجمع من الناس .

وعندئذ يزداد غضب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ورفع يديه وهو يقول : ألا قد بلغت . . . ألا قد بلغت . . . ألا قد بلغت .

وهذه الحادثة نعدّها بداية لقانون « من أين لك هذا » .

من هذه القصة نرى أن استغلال الوالى أو الحاكم لمال الشعب بأخذ هدية أو رشوه أو سمسة جريمة كبرى لما يترتب على ذلك من ضياع مال الدولة وشراء الذم وظلم الناس ، ولما يؤدى إليه ذلك من فقد الثقة وخلق الأحقاد واضطراب أمور الدولة . وهذا بدوره يؤدى إلى أواخر العواقب فى الدنيا والآخرة .

• وكان عمر بن الخطاب يحصى أموال ولاته وعماله قبل ولايتهم ،
ليحاسبهم على ما زاد بعدها . ومن تعلل منهم بالتجارة كان لا يقبل دعواه .

ولهذا عمل الولاة والحكام فى عهد النبي والخلفاء الراشدين بالهدى النبوى . وفيما يلى صورة لزاهة الولاة والحكام وحرصهم على أموال الدولة فى هذا العهد ، ليكونوا قدوة حسنة ، لمن كانوا يعملون معهم أو تحت قيادتهم . من هذه الأمثلة ما يحكى عن « عمير بن سعيد »

كان عمير بن سعيد واليا على حصص أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وبعد عام من ولايته طلبه أمير المؤمنين ليسأله عن أمور ولايته .

وقدم عمير بن سعد من حصص إلى المدينة ، على دابة ، بلا خدم أو أتباع ، ولو نه أراد غير ذلك لقدر عليه .

دخل عمير على عمر بن الخطاب فى ملبسه الخشن ، وخفيه الباليين ، وفى يده عكازته ، وعلى ظهره قصعته ومزوده (١) ، وعندما سلم على أمير المؤمنين دهش من مرآه ، وقال له :

(١) مزودة : وعاء الزاد .

- ما بك يا عمير ؟ .. هل حل الجذب بولايتك ؟
فقال عمير :

- ولم تظن ذلك يا أمير المؤمنين ؟
قال عمر :

لأن مرآك يدل على ذلك .
قال عمير :

وما الذى أدهشك من مرآى ؟ .. وقد جئت إليك أحمل الدنيا كلها
ابتسم عمر ، وقال :

- وماذا معك من الدنيا ؟
قال عمير بن سعد :

- هذه عصاى أتوكأ عليها . . . وأسوق بها جملى .
وعاد عمر بن الخطاب يقول :

- وماذا عندك أيضا ؟
قال عمير :

وهذه قصعتى أتوضأ فيها . . . وأغسل وجهى ورأسى ، وفى هذا
المزود أحمل طعامى .

ولما سمع عمر حديث عمير اغرورقت عيناه ، ثم بكى ، فدهش
عمير ، وقال :

- ماذا يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ . . . لم يكن معى شيء غير هذا ،
فأحدثك عنه ، أو أطلعك عليه .

كان عمر بن الخطاب يسمع كلام عمير ، ولا يستطيع أن يجيب .

ومشى يبكى إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان على مقربة منه ،
ولما بلغه ، ووقف عنده ، قال عمر :

— اللهم اجعلني من الراغبين في الآخرة والزاهدين في الدنيا :

وعاد عمر بن الخطاب إلى عمير بن سعد ، وجلس وقال :

— ماذا فعلت في أمور ولايتك ؟

فقال عمير :

أخذت الزكاة من أهل الزكاة ، وقبضت الجزية من أهل الجزية .

قال عمر :

وما الذي فعلته بها ؟

قال عمير :

قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل .

قال عمر :

وماذا بقي عندك ؟

قال عمير :

والله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي شيء لأتيتك به .

قال عمر :

وكيف حال المسلمين وأهل الذمة ؟

قال عمير :

أسأل الله أن يكون ظني حقاً ، لقد تركتهم وهم جميعاً راضون ، ليس

لأحد منهم حاجة ولا مظلمة .

قال عمر :

قد عرفت ذلك من قبل ، فأردت أن أستوثق منك .

عد يا عمير إلى عملك راشداً .

قال عمير :

أستاذك يا أمير المؤمنين أن أزور أهلي وأقضي بينهم بضعة أيام .

قال عمر :

لك ذلك .

ذهب عمير إلى أهله بعيداً عن المدينة ، ولم يكن أحد منهم يعلم بمقدمه ، فتلقته زوجته في شوق ، وقابله أبناؤه في لهفة ، وكان هو مثلهم شوقاً ولهفة .

— ونظرت زوجته إليه ، وقالت :

— لقد تركتنا يا عمير بحال خيراً من حالك هذه . . . ما الكساء القديم وهذا الرداء البالي ؟ ! . . . وما هذه النعل التي تكاد لا تستر قدمك ؟ ! . . . ألم يكن في ولايتك مال . . . وأنت الوالي ؟ ! . . .

قال عمير :

— وهل كان حكم الولاية مغنياً ؟

وقالت زوجته :

— ما قصدت ذلك . . . ولكن أين عطاؤك (١) ؟ وفيم كنت تنفقه ؟

قال لها :

أنفقه في سبيل الله ، فاشتريت آخرتي بدنياي .

(١) عطاؤك : راتبك وما خصص لك .

فاغتاظت زوجته نائلة ، وقالت :

ألسنا أحق بمالك من الذين أخذوه ؟

قال لها :

عندكم ما يكفيكم . . أما أولئك فلا يملكون شيئاً .

وعندئذ جاء ولده الصغير ، وجلس على حجره ، وقال :

- أين الهدية التي جئت بها إلى ؟

فتبسم عمير وقال :

- نسيتهما هذه المرة . . . وسأحضرها لك في المرة القادمة .

فقال زوجته نائلة :

- وهل عشنا إلى المرة القادمة ؟

فقال عمير :

- إن عشنا جاءت الهدية .

فقالت الزوجة في ألم وضجر :

- أف من أحوالك يا عمير ، إنك لقااس على نفسك ، فلا تكن

قاسياً على صغارك .

قال عمير :

- وإني بهم لرحيم .

قالت :

- أية رحمة ؟ تؤثر بمالك من لا نعرف ، وتحول بين نفسك وزوجتك

وولدك وبين ما أحل الله لك من المال ، كأنك لم تقرأ قول الله تعالى :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ولم تسمع قوله تعالى : « وأنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

فرد عليها بقوله :

لا ، يا نائلة ، لقد قرأت ذلك وفهمته . وليس فيما أتيت تحريم لكنك غافلة عن قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » فقطبت جبينها وقالت :

- لكن جيراننا لا يفعلون ما تفعل .

فقال لها :

- وما لنا ولجيراننا ؟ لكل أناس في حياتهم منزع .

قالت في تهكم :

- لست أقدر على فهمك .

فقال لها في صوت قوى :

- بل تقدرين ، لكن هواك مع الدنيا ، ومع متاعها الزائل . . . دعينا من كل هذا ، وأحضري لنا طعاماً .

قامت نائلة ، وأحضرت له طعاماً من خبز الشعير مع بعض الزيت وقالت :

- هذا خير ما عندنا .

فقال : الحمد لله على نعمائه

وما هي إلا لحظات حتى كان رسول عمر بن الخطاب يقرع باب عمير ، فقد أراد أن يزداد من أمره ثقة ، فبعث رسولا من عنده اسمه « حبيب » وقال له :

— اختبر لي عمير بن سعد بهذه الدنانير المائة . . . انزل عنده ثلاثة أيام إترى حاله . . . فإن وجدته في ضيق ، فادفع إليه مائة الدينار ، على أنها عطاء من بيت المال .

فلما قرع رسول أمير المؤمنين الباب أذن له . . . وأقام عند عمير ثلاثة أيام ، لم ير له طعاماً هو وأسرته إلا خبز الشعير وطعاماً مآدوماً بالزيت . وكان حبيب لم يأخذ نفسه بمثل هذا العيش الخشن ثلاثة أيام متوالية ، فضاق بالضيافة أياماً ضيقاً ، وكاد يعود إلى عمر قبل أن يكمل الأيام الثلاثة ، وأحس كآتماً عمر بن الخطاب قصد من إرساله إلى عمير أن يعاقبه أو يمرنه على الزهد .

لذلك ما كاد اليوم الثالث يقضى حتى قال لعمير : هذه مائة دينار بعثني بها إليك عمر عطاء لك من بيت المال ، فقد ساء حالك التي رأي ، وهو يجب أن توسع بها على عيالك .

فقال عمير :

— يا نائلة . أحضري أحدث ثوب عندك .

وأحضرت نائلة . . . هذا الثوب . . . فإذا بالثوب في كل موضع ، وقالت :

— ها هو ذا ثوبي يا أبا زيد . . . عمر عندي عشرة أعوام . . . ألسب زوجة مدبرة ؟

وما كان من عمير إلا أن أخذ هذا الثوب وقطعه قطعاً — والكل ينظر إليه . . . وحول كل قطعة إلى صرة ، ووضع في كل واحدة منها بضعة دنانير . هذه الصرة لفلان الفقير ، وهذه صرة لفلان . . . وهذه ثلاثة لفلان .

استأذن « حبيب من عمير ، ورجع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .
وقال :

جئتك من عند أشرف الناس . . . جئتك من عند أنبل الولاة
كان في مقدوره أن يأخذ أى شيء . . . ولكنه كان عفيفاً ، عاش
عيشة التقشف والزهد . . . لقد عرضت عليه المائة دينار . . . فوزعها
على الفقراء من حوله .

فرجع عمر بن الخطاب يده إلى السماء وقال :

— الحمد لله أن جعل للمسلمين ولاة وحكاما مثل عميرة ابن سعد .

* * *

مال الدولة ليس ملكاً لأحد ، وليس وقفاً على أحد بعينه ، وإنما هو
ملك لك وملك لى ، وملك للمواطنين جميعاً ، وملك للشعب كله . لك
فيه نصيب ولى فيه نصيب ، ولكل فرد من أفراد الشعب من غير استثناء
نصيب فيه ، ولهذا كان من الضروري أن نتعاون في المحافظة عليه فالاعتداء
عليه اعتداء على الشعب كله .

وعندما نصبح مسئولين عن مال الدولة يجب علينا أن نحافظ على أرض
الدولة ومالها ومرافقها ، فلا نتغصب أرضاً من غير حق ، ولا نهب مالا
من غير حق ، ولا تستغل مرافق الدولة لمصالحنا الخاصة ، ولا نهمل في
المحافظة عليها ، ولنا من خلفائنا وحكامنا المسلمين السابقين خير قدوة
نسير على نهجها ولهم في ذلك قصص ومواقف مشرفة فذكر بعضها
فيما يلي :

كان عمر بن الخطاب شديد الخوف من محاسبة الله له عن مال المسلمين
يوم القيامة ، فكان يقول :

— لو ماتت شاة على أرض المسلمين لظننت أن الله سائلني عنها
يوم القيامة .

وفي عام المجاعة سوى بينه وبين الناس جميعا ، فكان يجوع كما
يجوعون ، واقسم ألا يذوق لحما ولا لبنا حتى يذوقه كل الناس . كان
يستطيع أن ينفق المال ويجد لنفسه ألف عذر ، ولكنه لم يفعل ذلك .

ورأى عمر بن الخطاب أن إبل ابنه قد سمنت وكونت لحما وشحما ،
فأخذ منه نصف أرباحها ، وضمه إلى بيت المال ، لأنه خاف أن يكون
قد أرهاها في خير المراعى ، وتخلي عنها الناس له ، لأنه ابن الخليفة .

* * *

أرسلت ابنة علي بن أبي طالب إلى خازن بيت المال علي ابن أبي رافع
تقول له :

بلغني أن في بيت المال عقدا نادرا ثميننا من اللؤلؤ : فهل أستطيع
أخذه لأتزين به في يوم العيد ؟

فأرسله إليها بعد أن تعهدت بإعادته بعد ثلاثة أيام .

ولما رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عقد اللؤلؤ في جيبها(١)
عرفه ، فقال لها :

من أين جاء إليك هذا العقد ؟

فأخبرته بأنها أخذته من خازن بيت المال ، لتزين به يوم العيد ثم
ترده . فأرسل أمير المؤمنين يطلب علي بن أبي رافع ، ولما قدم قال له :

(١) جيبها : عنقها

نُحون مال المسلمين يا بن أبي رافع ؟

فرد قائلاً :

معاذ الله أن أخون المسلمين يا أمير المؤمنين .

فقال له :

لقد أعرت العقد الذي في بيت المال بغير إذني ورضاي . .

فعاد ابن أبي رافع يقول :

لقد أخذته لترده سالماً إلى موضعه بعد ثلاثة أيام .

فقال له علي بن أبي طالب :

رده من يومك ، وإياك أن تعود لمثل هذا العمل ، ولو أن ابنتي أخذت

العقد ، دون أن تتعهد برده ، لكأنت أول هاشمية قطعت يدها في سرقة .

* * *

وكان عمر بن عبد العزيز من إخلفاء الذين عرفوا بالمحافظة على مال

الدولة ، ففي ذات مساء دخل عليه رسول أحد الولاة ، فأمر عمر بإحضار

المصباح الكبير ، وأخذ يسأل هذا الرسول عن البلاد والرعية ، وعن

شئون العدل والنظام والأمن ، فأنبأه الرسول بجميع ما يعلم .

ولما بدأ عمر يتحدث عن شئونه الخاصة ، أطفأ المصباح الكبير ،

ودعا بسراج لا يكاد يضيء ، فقال له رسول الوالي الذي كان يتحدث

معه :

لم هذا يا أمير المؤمنين ؟

فأجابه :

إن المصباح الكبير يضيء من مال المسلمين وكنت أسألك في أمورهم ،
فكان المصباح يضيء بين يدي فيما يصلحهم ، وهو لهم ، فلما صرت لشأني
وأمر عيالي أطفأت نوره .

وهذا ما حمل الولاية على أن يكونوا قدوة حسنة في المحافظة على
موال المسلمين في عهده .

وبهذا ازدهرت الدولة على أيدي أولئك الخلفاء ، واتسع نفوذها ،
وامتدت هيبتها إلى مشارق الأرض ومغاربها .

موضوعات الكتاب

رقم الصفحة

٥	الإسلام والبر بالآباء
	معاملة الأبناء للآباء
١٣	الإسلام ومعاملة الآباء للأبناء
١٨	الإسلام وحسن معاملة الجار
٢٢	الإسلام ومعاملة الزوجة المسلمة لزوجها
٢٥	الإسلام ومعاملة المرأة واحترامها
٣٣	الإسلام وصلة الرحم
	حسن المعاملة في الإسلام
	بالكلمة الطيبة ، وبشاشة الوجه واحترام الصغير الكبير ،
٣٦	وعطف الكبير على الصغير .
٤١	الإسلام وحسن معاملة اليتامى والمساكين وأبناء السبيل
٤٧	معاملة المسلم لأخيه المسلم
٥٢	التضامن الاجتماعي بين المسلمين
٥٥	أدب التحية والحديث في الإسلام
٦٠	الإسلام والوفاء بالوعد والعهد ورد الأمانات
٦٤	معاملة المسلم لغير المسلم
٦٩	الإسلام ومعاملة الخادم والأجير
٧٣	معاملة الحيوان في الإسلام

رقم الصفحة

٧٧	الإسلام وآداب الطريق
٧٩	الإسلام دين السلام
٨٢	الإسلام ومعاملة الأسرى
٩٣	الإسلام ومعاملة الحاكم والمحكوم
٩٩	المعاملات المالية والتجارية في الإسلام
١١٠	حماية المال الخاص والعام في الإسلام
١١٤	مال الدولة والحفاظة عليه في الإسلام



General Organization of the Alexandria Library (GOAL) رقم الأيداع بدار الكتب

Bibliotheca Alexandrina لسنة ١٩٧٨

XXXXXXXXXXXX

مطابع الجمهورية
القاهرة - عابدين
٩٤٤٤٦٨ / ٩٠٤٩٨

للمؤلف

كتب دينية وأدبية

* عظمة الرسول

* نبي الاسلام في مرآة الفكر الغربى

* حياة محمد

* فن القراءة

لماذا نقرأ ؟ ماذا نقرأ ؟ كيف نقرأ ؟

* فن الحديث

* فن الصدأفة

يطلب من دار الفكر العربى بالقاهرة
شارع جواد حسنى

طبعت بمطابع مؤسسة روز اليوسف

To: www.al-mostafa.com